مكتبة الأسرة
2000

مهرجان القراءة للجميع

روائع الأدب العالمي للناشئين

مون فليت

ج. ميد فوكنر

الطبعة الثانية

لوحة للفنان: محمود الهندى

الهيئة المصرية
العامة للكتاب

مــون فليــت

مــون فليــت

الطبعة الثانية

تأليــف: ج. مــيـدفــوكنر
ترجمـــة: مـخـتـار السـويـفى
مـراجـعـة: صـبـرى الفـضل



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٠
مكتبة الأسرة
برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأدب العالمى للناشئين)

مون فليت

تأليف : ج. ميدفوكنر
ترجمة: مختار السويفى
مراجعة : صبرى الفضل

الغلاف
والإشراف الفنى:
الفنان : محمود الهندى
المشرف العام :
د . سمير سرحان

الجهات المشاركة:
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة الإدارة المحلية
وزارة الشباب
التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم

«كتاب لكل مواطن ومكتبة لكل أسرة» تلك الصيحة التى أطلقتها المواطنة المصرية النبيلة «سوزان مبارك» فى مشروعها الرائع «مهرجان القراءة للجميع ومكتبة الأسرة» والذى فجر ينابيع الرغبة الجارفة للثقافة والمعرفة لشعب مصر الذى كانت الثقافة والابداع محور حياته منذ فجر التاريخ.

وفى مناسبة مرور عشر سنوات على انطلاق المشروع الثقافى الكبير وسبع سنوات من بدء مكتبة الأسرة التى أصدرت فى سنواتها الست السابقة «١٧٠٠» عنواناً فى حوالى «٣٠» مليون نسخة لاقت نجاحاً واقبالاً جماهيرياً منقطع النظير بمعدلات وصلت إلى «٣٠٠» ألف نسخة من بعض إصداراتها.

وتنطلق مكتبة الأسرة هذا العام إلى آفاق الموسوعات الكبرى فتبدأ بإصدار موسوعة «مصر القديمة» للعلامة الاثرى الكبير «سليم حسن» فى «١٦» جزءاً إلى جانب السلاسل الراسخة «الابداعية والفكرية والعلمية والروائع وامهات الكتب والدينية والشباب» لتحاول أن تحقق ذلك الحلم النبيل الذى تقوده السيدة: سوزان مبارك نحو مصر الأعظم والأجمل.

د. سمير سرحان

الفصل الأول

قريـة مون فليت

تقع قرية مون فليت على الضـفة الغربية لنهر « فليت » وعلى مبعدة نحو نصف ميـل من شـاطىء البحر • ويضيق مجرى هذا النهر حين يمر بمنطقـة القرية ، وما أن يبتعد المجرى خلف القرية حتى يتباعد شاطئاه ويصبح أشبه مايكون ببحيرة واسعة •

فى طفولتى •• كنت أظن أن القرية قد سـميت بهذا الاسم « مون فليت » لأن القمر يتلألأ نوره على سطح هذه البحيرة المجاورة ، ولكننى علمت فيما بعد أن الاسم الحقيقى لهذه القرية هو « موهون فليت »

وقد تحرف هذا الاسم فيما بعد الى « مـــون فليت » بمرور الزمن ٠٠

أما كلمة « موهون » فهى اسم لعائلة كبيرة كانت تحكم فيما مضى هذا الاقليم من البلاد الذى تقع فيه القرية ٠٠

اسمى « جون ترنشارد » ٠٠ وكان عمرى خمسة عشر عاما حين بـدأت هذه القصـــة ٠٠ وكنت يتيـم الأبوين ولذلك فقد كنت أعيش مع خالتى «مس آرنولد»

وقد بدأت احداث هذه القصـــة فى شتاء عـام ١٧٥٧م ٠٠ حين كنت اقرأ قصة « علاء الدين والمصباح السحرى » وكيف اغلق عليه الساحر باب كهف عميق بداخـــل الأرض ، لأن عـــلاء الدين رفض أن يعطيه المصباح ٠٠

وقد جعلتنى قراءة هذه القصة افكر فى الكوابيس والأحلام المزعجة حين نرى انفسنا وقد انحبسنا داخل



قرية مون فليت ..

حجرة ضيقة مغلقة ، ونرى جدران هذه الحجرة تضيق علينا حتى تكاد تخمد أنفاسنا ‥ لذلك فقد توقفت عن القراءة وخرجت الى الشارع ٠

كانت الشمس قد غربت منذ قليل ومع ذلك فلم تكن السماء مظلمة ‥ وكان كل شىء هادئا تماما ، عدا صوت رتيب كان يصدر من احد البيوت : تاب ‥ تاب ‥ تاب ‥ تاب !

كان الصوت يخرج من بيت « راتسى » حفار القبور ‥ ويبدو أنه كان يحفر اسم أحد الموتى على الشاهد الحجرى الذى سيوضع فوق قبره ٠

توجهت نحو بيت « راتسى » ونظرت خلال الباب المفتوح ٠ وما أن شاهدنى « راتسى » حتى قال :

ـ أهلا ياجون ‥ تعال ساعدنى واحمل لى المصباح !

كان « راتسى » يحفر نقشا يصور سفينتين صغيرتين ‥ وكان رجال كل سفينة يحاربون رجال

السفينة الأخرى ·· وتحت هاتين السفينتين كتبت الكلمات التالية :

« دافيد بلوك »

عمره : ١٥ سنة ·· قتل بطلقة نارية

أطلقتها السفينة « الكتور »

فى ٢١ يونيو ١٧٥٧

وكان « دافيد » المسكين هذا حديث جميع أهالى القرية ·· وهو الابن الوحيد لـ « الزفير بلوك » صاحب حانة « هواى نوت » ··

***

فى ذلك الزمن ، كان على التجار الذين يستوردون أى نوع من البضائع الى انجلترا ، أن يدفعوا ضرائب باهظة لخزانة الملك · ولذلك فقد ظهرت مجموعة من

« المهربين » الذين كانوا يتمكنون من ادخال الكثير من البضائع الى البلاد دون أن يدفعوا الضرائب المفروضة وكان هؤلاء المهربون يقتربـون بسـفنهم الى بعض الشواطىء الخالية حيث لايراهم أحد ، ويقومون بانزال مايحملونه من صناديق وبراميل الى البر ٠

واضطر الملك الى تكوين مجموعة من « رجـال الضرائب » لتقوم بمواجهـة هؤلاء المهربين والقبض عليهم ٠

وكان « الزفير » واحدا من هؤلاء المهـربين ٠٠ وكانت احدى السفينتين اللتين يحفـر « راتسـى » صورتهما على شاهد القبر ، تابعة « لرجال الضرائب » بينما كانت السفينة الأخرى تابعة « للمهربين » ٠

ويقال ان « المستر ماسكيو » الذى يملك أراضـى واسعة قـرب « مـون فليت » هو الذى أبلـغ رجال الضرائب بالخطط التى يدبرها المهربون ٠٠ وأنه كان على ظهر سفينة رجال الضرائب حين قتل « دافيد » ٠

***

قال راتسى وهو ينظر الى السـفينتين والكلمات التى نقشها على شاهد القبر الذى كان يعمل فيه :

ـ انه أمر سيىء أن يقتل غـلام فى مثـل هذه السن ·· وهم يقولون ان المهربين الثلاثة الذين تـم القبض عليهم سيعدمون شنقا ·· على أية حال ففى يوم الاثنين القادم سأقوم بتلوين السـفن وأعلامهـا باللونين الأحمر والأسود ·· أما الآن فهيا نذهب معا الى حانة « هواى نوت » ·· ان « الزفير » فى حزن شديد ·· تعال نتحدث اليه ونواسيه ·· !

وكنت على يقين من أن خالتى ستغضب اذا علمت بأنى ذهبت الى حانة « هواى نوت » ·· ومع ذلك فقد ذهبت ·

ولم يكن « هواى نوت » هو الاسم الحقيقى لهذه الحانة ·· فقد كان اسمها فى الأصل « حانة الموهون » نسبة الى عائلة « الموهون » التى كانت تتخذ حـرف « الواى » الانجليزى « Y » شعارا لها · ومازال هذا

الشعار موجودا على بـــاب الحـــانة ·· ولذلك فقد سماها الناس حانة « واى » ·· ثم تحرف هذا الاسم الى « حانة هواى » ·· ثم الى « هواى نوت » ·

فتح « راتسى » باب الحانة ودلف الى الداخـل ودخلت وراءه الى القاعة الرئيسية بالحانة ، وكانت عبارة عن حجرة واسعة رصت المقاعد بجوار جدرانها ووضعت منضدتان فى المنتصف ·· وفى أقصى طرف القاعة كانت هناك مدفأة تتأجج فيها النـــار ·· وكان الضوء المنبعث من هذه النار هو مصدر النور الوحيد فى تلك القاعة ·

وبالقرب من هذه المدفأة ، جلس « الزفير » حزينا وهو يتأمل شعاعات اللهب وهـى تتراقص فوق الحطب المشتعل ··

كان « الزفير » رجلا قويا ضخم الجســـم ·· وقليلون هم الذين يعرفون عنه شيئا ·· وكان أغلبية الناس يندهشون لاصـراره على ادارة وتشـــغيل هذه

الحانة التى تدر عليه ربحا قليلا ، مع انه غنى ويمتلك الكثير من الأموال وليس فى حاجة الى هذا الربح القليل .

ونظر الى « الزفير » فى غضب وقال مخاطبا « راتسى » :

ـ لماذا أحضرت هذا الطفل الى هنا .. ؟!

فقال « راتسى » بهدوء وثقة :

ـ « جون » ليس طفلا .. انه فى عمر ابنك دافيد .. لقد ساعدنى فى انهاء النقش على الشاهد الذى سنضعه على قبر دافيد ..

فقال « الزفير » بصوت حزين متوعد :

ـ نعم .. سيرقد « دافيد » فى سلام .. أما الذين قتلوه فلن يعرفوا السلام أبدا .. !!

وحسب علمى كنت أعرف أنه يقصد « مستر ماسكيو » بهذا التهديد ..

وجلس « راتسى » بجوار « الزفير » ·· وأخذ الاثنان يتحدثان معا فى بعض الشئون ·· وبعد مرور بعض الوقت ، نظر « الزفير » نحوى وقال :

ـ لقد حان الوقت لتنصرف أيها الغلام ·· ان «ذا اللحية السوداء » يتجول فى المساء ·· ولا اعتقد أنك تريد ان تقابله !

***

كان « ذو اللحية السوداء » هذا أحد أفراد عائلة « موهون » وقد مات منذ زمن ودفنت جثته فى قبر تحت الأرض التابعة للكنيسة ·· ولكن يقال انه لم يكن مستريحا فى قبره لأنه فقد جوهرة ضخمة قبل أن يموت ويخرج شبحه من القبر كل مساء ليواصل البحث عن هذه الجوهرة ·· ولذلك فقد كان الناس يخشون الاقتراب من الكنيسة بعد غروب الشمس خوفا من رؤية أو مقابلة « ذى اللحية السوداء » · ويقال ان « كراكى جونس » الذى عثر عليه مقتولا ذات صباح

قد مات بعد أن تقابل مع « ذى اللحية السوداء » فى الليل ·

والاسم الحقيقى لـ « ذى اللحية السوداء » هو « جون موهون » وكان يعمل مأمورا للسجن الذى سجن فيه « الملك شارل الأول »(١) بعد هزيمته · وكان الملك يتزين بجوهرة ثمينة عبارة عن قطعة ضخمة من الماس وعرض « جون موهون » على الملك السجين أن يساعده فى الهرب من السجن أذا أعطاه هذه الماسة · وقبل الملك هذا العرض وأعطى الماسة « لجون موهون » ··

وما أن شرع الملك فى الهرب من السجن حتى لحق به « جون موهون » وقبض عليه وأعاده الى السجن مرة أخرى ·· ولكن هذه القصة المخادعة قد اكتشفت وصدر أمر بالقبض على « جـون موهـون » وأودع

---

(١) الملك شارل الأول كان ملكا سيئا على انجلترا ، وقامت ضده ثورة عارمة ، وقبضوا عليه وسجنوه ثم أعدموه .

السجن ·· ولكنه استطاع الهرب ، وقـــام باخفـــاء الجوهرة الثمينة فى مكان ما ··

ويقول الناس انه لم يستطع أن يعثـــر على هذه الجوهرة بعد ذلك ·· ويقول آخرون انه لم يســـتطع الوصول الى المكان الذى اخفى فيه الجوهرة ·· ولهذا السبب فان شبحه يخرج من المقبرة كل مساء ليواصل البحث عنها ·

وبالرغم من كل ذلك فقد كنت أحب الذهاب الى منطقة المقابر والجلوس هناك حتى أتمكـــن من رؤية البحر ·· وليكنى كنت أخاف بالطبع من الذهــاب الى المقابر بعد أن يحل المساء ·· ومع ذلك ففى احـدى الليالى شاهدت ضوءا يتحرك فى منطقة المقابر··وكان هذا شيئا غريبا لأن أحدا لايستطيع أن يمشى فى تلك المنطقة فى مثل هذا الوقت المتأخر من الليل ·· !

***

الفصل الثانى

الموهون يتحركون ٠٠ !

وفى يوم السبت ٠٠ بعد مرور بضـــعة أيام على زيارتى الأولى لحانة « هواى نــوت » ٠٠ كان الجو سيئا للغاية ، فقد هطلت الأمطار بغزارة ، وفاض النهر وغطت المياه مساحة كبيرة من القرية ، ومع ذلك فقد ظلت منطقة المقابر بعيدة عن مياه الفيضان بالرغم من أن المياه قد وصلت بالفعـــل الى الجدران المحيطـــة بالمنطقة ٠

وكان الوقـــت بعد الظهر ٠٠ وكنت أســـير مع « راتسى » فى الطريق الذى يخترق منطقة المقابر لأنـــه

كان أفضل الطرق الصالحة للوصول الى القرية بعد أن أغرقت المياه بقية الطرق الأخرى ٠

وهناك تقابلنا مع « المســـتر جلينى » الذى كان قادما من جهة الكنيسة ٠٠ وعندئذ توقفنا عن السير وبدأنا نتحدث معه ٠٠ وكانت وقفتنا بجوار قبر مرتفع ، يبدو وكأنه على شكل منضدة ، وتحيط به شجرتان ٠٠ شجرة على كل جانب ٠٠

وكانت الشمس قد أوشكت على المغيب والاختفاء خلف خط الأفق ، ولكنها لم تزل تسلط أشعتها الحمراء على السحب العالقة بالسماء ٠٠ والتى كانت تتشكل فى أشكال غريبة ورجـــال ضخام يحيط بهـــم النور الأحمر من كل جانب ٠٠

والحقيقة انى بدَأت أشعر بالخوف من البقاء فى منطقة المقابر بعد مغرب الشمس وحلول الظــلام ٠٠ لذلك فقد وضعت يدى على ذراع «راتسى» لأنبهه الى أن وقت عودتى الى البيت قد حان ٠

وفجأة حدث شيء جعلني ارتعد من شدة الخوف .. سمعنا أصواتا صادرة من تحت أرض المقابر .. وكانت معنا « مسز تاكر » وهي سيدة عجوز طاعنة في السن .. وما أن سمعت الأصوات المخيفة التي سمعناها ، حتى صاحت عاليا وهي تسرع بالفرار .

ـ الموهون يتحركون !! .. الموهون سيخرجون من قبورهم .. !!

وعندئذ قال « المستر جليني » وهو يقف ثابتا كأن شيئا لم يحدث :

ـ يالها من سيدة غبية ! .. اننا نقف فوق القبور .. والقبور عبارة عن غرف تحت الأرض .. وبعضها غرف واسعة رصت فيها توابيت أسرات وعائلات بأكملها .. وربما تسربت المياه الى تلك الغرف فحركت التوابيت وجعلتها تتخابط في بعضها ..

وقال « راتسي » :

ـ ربما تكون على صواب يامستر « جلينى » ٠٠ ولكن هناك مثل يقول : عندما يتحرك الموهون ٠٠ فان ذلك معناه الموت لشخص ما ٠٠

فقال « المستر جلينى » :

ـ اذا تحرك الموهون فان ذلك قد يعنى أشـــياء كثيرة ٠٠ ولكن هذه المرة لم يتحرك الموهون ٠٠ بــل المياه هى التى حركت توابيتهم !

***

شعرت بالارتياح والسرور عندما غادرت ذلك المكان ٠٠وأسرعت فى طريقى الى البيت ٠٠ ولكن ذهنـــى كان مشغولا طول الوقت بحكاية « جون موهون » ذى اللحية السوداء والجوهرة التى خبأها فى مكان ما ٠٠ ترى أين خبأها ؟ ٠٠ ربما أخفاها فى قبره ٠٠ وهل هو بالفعل مازال يبحث عنها ؟! ٠٠ وهل صحيح أنه يقوم من تابوته ويخرج من قبره بعد مغرب الشـمس ويظل يبحث عنها طول الليـــل ؟! ٠٠ يبحث عن تلك

الماسة البراقة اللامعة الثمينة التى باع من أجلهـــا شرفه ·· وهل يكتفى بالبحث عنها فى منطقة المقابـــر أو بالقرب منها ·· أو فى داخل القرية نفسها ·· فى الحارات المظلمة ·· وفى الأركان والأماكن التى تخفيها الظلال ·· ؟!

وتذكرت « كراكى جونس » الذى تم العثور عليه مقتولا ذات صباح · !

***

وفى يوم الاثنين ·· قررت الذهـــاب الى منطقة المقابر لعلى أسمع أصوات « الموهون » وهم يتحركون ·· وهل هم يتحركون فعلا ؟ ·· وبطبيعة الحال فقد حرصت على أن تتم هذه الزيارة قبيل غروب الشمس ، وأن أغادر منطقة المقابر قبل أن تحمر السماء وقبل أن تصبح الاشياء ظلالا داكنة ··

وتسللت الى منطقة المقابر ·· وقصـــدت القبر الضخم الذى يبدو كمنضدة والذى يتوسط شـــجرتين

والذى كنا بجانبه حين سمعنا الأصوات الصادرة من تحت الأرض ·· وهناك فوجئت بوجـود « راتســى » و « الزفير » · وكان « راتسى » يضع أذنه على جدار القبر كما لو كان ينصـت الى شىء ·· ولاحظت أن « راتســى » قد اعتـراه الغضـب حين رآنـى ، ولذلك فقد بدأت فى الجرى محاولا الهرب ، ولكنه نادى على قائلا :

ـ جون ·· جون ·· ما الذى دعاك الى الحضور الى منطقة المقابر فى مثل هذا الوقت ؟!

أجبت بلا تردد :

ـ لقد جئت لأسمع أصوات « الموهون » وهـم يتحركون ·· وهل مازالوا يتحركون ·· ؟ !

فقال « راتسى » :

ـ دعك من هذه الخرافات والاشاعات الغبية ·· كل ما فى الأمر أن المياه قد تسربت تحت أحجار هذا القبر ·· وهأنذا أقوم باصلاحها ·· وعليك الآن أن تذهب الى بيتى فى طريق عودتك ·· وتخبرهم هنـاك

بانى سأتأخر فى العودة هذا المساء لأنى مشغول فى اصلاح القبر كما ترى !

لاحظت انه يحاول أن يجد مبررا أو سببا ليبعدنى عن هذا المكان ‥ وعلى أية حال فلم أكن أرغب فى الوجود فى مكان اعتبر فيه شخصا غير مرغـوب ۰ ولذلك فقد أسـرعت بالعودة ‥ ومـررت على بيت « راتسى » وأخبرتهم بما قال ‥ ولكنى ما أن غادرت البيت بعد أداء هذه المهمة ، حتى رأيت « راتسـى » قادما نحو البيت ‥ وحين رآنى ضحك ‥ !

***

الفصل الثالث

تحت الأرض ..

اصبح هذا القبر الضخم المرتفع الذى يشبه المنضدة مكانى المفضل فى منطقة المقابر كلها .. كنت اجلس فوقه محتميا بظل الشجرتين وأتمتع بمشـــاهدة البحر والسفن الشراعية العابرة من بعيد ..

كان من الواضح ان هذا القبر بالذات محل اهتمام كثيرين غيرى ، فقد كان الطريق الضيق المؤدى اليــه ممهدا على نحوما وتظهر عليه آثار العديد من الأقدام .

لقد مرت الآن عدة اسابيع منذ أن رأيت «راتسى»

و « الزفير » واقفين عند القبر وعندمـــا اســـتبعدنى « راتسى » من منطقة المقابر بحجة واهية وغير حقيقية ·· ومع ذلك فقد اصبحت الآن مواظبا على الحضور الى هذا المكان لأتمتع بالوحدة والهدوء ومنظر البحر ··

وفى عصر أحد الأيام ، ذهبت الى مكانى المعتاد ·· وجلست موجها نظرى نحو البحر ·· وكان الجو هادئا وقد ساعد الهواء الدافىء على تجفيف مياه الأمطـار الغزيرة التى سـقطت منذ فتـــرة ·· ولكن الأرض الترابية التى جفت ، اتخذت أشكالا غريبة متنوعة ·· بعضها على هيئة خطوط متوازيـــة أو متقاطعـــة ، وبعضها اتخذ شكل أوان فخارية سيئة الصنع ، كما تخلفت عدة ثقوب فى بعض الأماكن بأرض المنطقة ·

لقد لف الهدوء كل شىء لدرجة انى كنت أسـمع غناء « جورج » الفلاح وهو يعمل بحقله عند سـفح التل ·· وكانت الساعة قد اقتربت وقتئذ من الرابعة بعد الظهر ·· لقد حان اذن الوقت المناسب لمغـــادرة منطقة المقابر والعودة الى البيت ·· وفجأة سـمعت

صوتا صادرا من تحت الأرض التى يعلوهـــا القبـر الضخم الذى كنت اجلس فوقه ·· ولاحظت أن بعض الأتربة قد انهارت تحت الكتلة الحجرية التى تسد مدخل القبر ، وتركت فتحة صغيرة ، ولكنها تكفى لدخول أى انسان يزحف على يديه وركبتيه ·

وبطبيعة الحال فلا يوجد أى صبى فى الدنيا يرى مثل هذه الفتحة ولا يود الدخول اليهـــا ليعرف ماذا وراءها ·· وهى نفس الرغبة التى انتابتنى وقـــررت تنفيذها ··

وهكذا قفزت من فوق القبر ، وجلست على الأرض جوار الفتحة ، ومددت قدمى بداخلها ، وبدأت أزحف ببقية جسمى،الى أن لمست قدماى الأرض بداخل القبر ·· وعندئذ وجدت نفسى واقفا تحت الكتلة الحجرية التى تسد مدخل القبر من الخارج ·

توقعت فى البداية أن الأمر لايعدو أن بعض الأتربة التى كانت تغطى سقف القبر قد انهــارت وأدت الى

ظهور تلك الفتحة التى تسللت خـلالها ، وكنت اظن اننى الآن بداخل الحجرة السفلية للمقبرة ·· ولكنى كنت مخطئا فى هذا الاعتقاد وهذا الظن ·· فقد تأكدت من أن هذه الفتحة هى فى حقيقة الأمر مدخل الى ممر طويل ينحدر قليلا الى أسفل ··

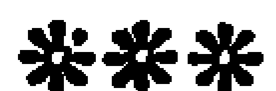
وكان هذا اكتشافا رائعا ومثيرا بالنسبة لى ·· فلا شك أن هذا الممر السرى سيؤدى الى المكان الذى أخفى فيه ذو اللحية السوداء جوهـــرته الثمينة ·· وانتابنى احساس غامر بالسعادة حين تصورت نفسى وقد عثرت على تلك الجوهرة ، وأصبحت فى قمة الثراء والغنى ··

وتنبهت بدهشة الى أن هواء الممر لطيف ومتجدد ·· وأن الممر نفسه نظيف بالرغم من أن أرضيته مغطاة بتراب ناعم تظهر عليه آثار أقدام كثيرة ·· وبدأت أسير الى داخل الممر بحذر وقد مددت ذراعى أمامـى حتى لا أصطدم بشىء غير متوقع ·· ثم أخذ الضوء يخفت ويقل كلما توغلت الى الداخل الى أن وصلت

الى نقطة لا اثر للضوء فيها وغارقة فى ظلام دامس ‥ وعندئذ شعرت بالخوف وقررت العودة ٠

وفى أقل من دقيقة كنت ازحف بجسمى خارجا من نفس الفتحة التى دخلت منها ‥ وتسلل الى انفى الهواء المنعش ورأت عيناى أضوا الشفق الحمراء وهى تلون صفحة السماء ‥ واسرعت الخطى نحو بيت خالتى قبل ان يحين موعد العشاء ٠

وفى اثناء الطريق قررت انى لابد أن أعود الى هذا الممر الغامض مرة اخرى ، ولكن من الضوورى ان تكون معى شمعة استعين بضوئها عندما يلزم الأمر ٠!



الفصل الرابع

المخازن السرية للمهربين

لاحظت على الفور أن خالتى كانت غاضبة على لأنى اصبحت أتأخر كثيرا عن الموعد المناسب للعودة الى البيت •• وعندما احضرت طعام العشاء جلسنا نتناوله صامتين ، ولم تنطق خالتى بكلمة واحدة •• وطبعا لم اخبرها بشىء عن اكتشافى المثير للممر السرى •• ولكن ما أن انتهينا من تنـــاول الطعام حتى هبت خالتى واقفة وقالت :

- جون ! •• لقد لاحظـــت انك اصبحت تتأخر كثيرا فى العودة الى البيت مساء كل يوم •• وهذا

أمر سيىء بالنسبة لصبى فى مثل عمرك ٠٠ ولايجب ان تبقى خارج البيت بعد غـروب الشـــمس ٠٠ ان السرير وحجرة النوم هى افضل الأماكن للأولاد فى مثل هذا الوقت ٠٠ والآن دعنى اقرأ لك شـــيئا قبل ان تذهب الى النوم ٠٠ !

وجلست خالتى وبدات فى القـــراءة من كتـــاب يتضمن الكثير من الحكايات عن المثل العليا والأولاد الصالحين الطيبين ذوى الأوصاف الحسنة التى تجعل من الصعب على الانسان أن يصـدق أن مثـــل هؤلاء الأولاد كانوا موجودين فى الحقيقة ٠٠ ولا أخفى أن ذهنى كان منصرفا تماما عمـا تقراه خالتى ٠٠ لقـــد كنت مشغولا باحلامى عن الجواهر ٠٠ وعن صاحب اللحية السوداء ٠٠ وعن الممر السرى ٠٠ وعن الشمعة التى يجب أن احملها معى عند ذهابى لاكتشاف هذا الممر مرة أخرى ٠٠

وبعد أن انتهت خالتـــى من القراءة ٠٠ وقفـت وقبلت راسها وتوجهت فورا الى غرفة نومى ٠٠ وما

كنت أعلم فى تلك اللحظة أنى أقبل خالتى لآخر مرة ··
وأنى لن أعود للنوم فى تلك الحجرة مرة أخرى ··

***

كان ضوء القمر ينير حجرتى ·· ولم اخلــع ملابسى حين تمددت على السرير منتظرا مرور الوقت حتى أتأكد من أن خالتى قد اســـــتغرقت فى النوم · وانتظرت طويلا ··

وعندما تيقنت من أن خالتى قد نامت ·· قمــت بهدوء وخلعت حذائى وحملته فى يدى حتى لا أحدث صوتا بوقـــع خطواتى على الأرض ·· وتوجهت الى غرفة الخزين وحصــلت على شـــمعة كبيرة جيدة . وتسللت بكل هدوء الى خارج البيت ·

وتعمدت أن اسير فى منــاطق الظـــلال والأماكن المظلمة على جانبى الشارع حتى لايرانى احد ·· ولكن قرية « مون فليت » باكملها كانت مستغرقة فى النوم ،

ولايوجد أى أثر للضوء ينبعث من مساكنها وبيوتها ، عدا نلك الضوء الخافت الذى يخرج من حانة « هواى نوت » · واقتربت من نافذة الحانة ، وحاولت أن أرى مايدور بداخلها ولكنى لم أستطع أن أرى شيئا ·· بل سمعت عدة أصوات تتحدث مع بعضها ·· تـرى من هم أصـحاب هذه الأصوات وفيـم يتحدثون فى هذا الوقت المتأخر من الليل ·· ؟ !

وواصلت السير ·· حتى وصـلت أخيرا الى منطقة المقابر ·· وعندئذ بدأت أشعر بالخوف ·· لأن هذا الوقت من الليل هو افضل الأوقات بالنسبة لصاحب اللحية السوداء ، ليتجول فيه بحثا عن جوهـرته ·· وكنت اتوقع أن أراه أمامى فى اية لحظـة ·· ولكن شيئا من هذا لم يحدث ولم اقابل احدا وليس هنـاك صوت سوى وقع اقدامى على بعض الأعشـاب التى تغطى أرض منطقة المقابر · ووصلت فى النهاية الى موقع الفتحة التى سأتسلل منها الى الممر السرى ··

فى الحقيقة انى ترددت كثيرا ·· وأخذت اسائـل

نفسي : هل أغامر بالدخول أم أعـــود الى البيت ٠٠ وفجأة لاحظت فى ضوء القمر أن هناك قاربا يرســـو بالقرب من شاطىء البحر ٠٠ وكان من الغريـــب أن يصل أحد القوارب الى « مون فليت » فى هذا الوقت المتأخر من الليل ولشدة دهشتى رأيت اشارات بالنور الازرق تنبعث من هذا القارب فى اتجاه الشـــاطىء ٠ وتأكدت عندئذ من أن هذا القارب يتبع بعض المهربين الذين يريدون أن يبلغوا زملاء لهم على الشاطىء بأنهم وصلوا وانهم مستعدون ٠٠

غير انى لم أهتم كثيرا بهذا الأمر ، وعزمت على البدء فى مهمتى التى حضرت من أجل تنفيذها وهـــى الدخول الى الممر واكتشـــاف خباياه حتى أعثر على الجوهرة ٠٠ واستغرقت فى أحلام الغنى والثراء مرة أخرى ٠

ولكنى مع ذلك لاحظت أن هناك آثار اقـــدام على التراب الناعم اكثر مما رأيته فى المرة السابقة ٠٠ ترى

هل سبقني احد بالمجيء الى هنـــا وسيحصـــل على الجوهرة قبل أن أحصل أنا عليها ·· ؟ !

وعلى ضوء الشمعة واصلت السير داخل الممر ·· وخيل الى أنى سرت نحو ميل أو أكثر ·· ولكنى لـم أتجاوز فى حقيقة الأمر أكثر من عشرين خطوة ·· ورأيت على أحد جانبى الممر فتحـــة فى الحائط على شكل باب مفتوح يؤدى الى حجرة داخلية ·· وساءلت نفسى ماذا عساها أن تكون هذه الحجرة ·· وتذكرت أن هذا القبر يضم مجموعة توابيت عائلة « الموهون » ولابد أن تكون هذه الحجـرة هى حجـرة الدفن التى تضم مجموعة التوابيت ·· ودخلت ·· !

كانت حجرة كبيرة أوسع كثيرا من حجرة الفصل فى مدرستنا ولكن سقفها منخفض لا يزيد ارتفاعه على تسعة أقدام ·· وكانت ارضها مغطاة بالرمال ، وعند أحد جوانب الحجرة رأيت بعض الدرجات ·· وعلى جميع جوانب الحجرة تراصت توابيت عائلة «الموهون» مدفونة فى الفتحات التى أعدت لها على الجدران ··

وفى وسط الحجرة لم يكن هناك توابيت ، بل رأيت مجموعة كبيرة من الصناديق والبراميل مختلفة الأشكال والأحجام ·· انها البضائع المهربة ·· !!

هذا هو اذن الاكتشاف الحقيقى ·· فبدلا من العثور على جوهرة « ذى اللحية السوداء » ·· اكتشفت أن قبر عائلة « الموهون » قد أصبح مخزنا سريا للبضائع المهربة !

الآن فقط أدركت حقيقة الأصوات التى صدرت من تحت الأرض والتى قيل انها أصوات «الموهون» وهم يتحركون ·· لم تكن التوابيت فقط هى التى تتحرك بفعل مياه الأمطار ، ولكن الصناديق والبراميل تحركت أيضا وأخذت تتخابط فى بعضها ··

وأدركت أيضا أن « راتسى » و « الزفير » يعملان فى التهريب ·· وأن « راتسى » كان قد حضر الى القبر يوم أن قابلته هناك وأبعدنى لكى يطمئن على أن فتحة

المر سليمة خوفا من أن يكتشف إحد أمرها ويعرف سر مخزن البضائع المهربة ··

***

ومع ذلك فقد عاودت التفكير مـرة أخـرى فى موضوع الجوهرة الثمينة وكيفية العثور عليهـا ·· وبدأت أفكر فى توابيت عائلة « الموهون » المرصوصة فى جدران الحجرة ·· ففى أى تابوت ياترى أخفيت الجوهرة الثمينة ؟ ! ·· ان جميـع هذه التوابيت متشابهة الى حد كبير ولا يوجد عليها اسماء أصحابها ·· وبدأت أشعر باليأس وبأنى لن أعثر على شىء فى هذا المكان ·· وفجأة سمعت جرس الكنيسة يدق اثنتى عشرة دقة معلنا انتصاف الليل ··

كانت « مون فليت » تفخر دائما بجرس كنيستها ، لأن رنينه كان قويا وجميلا ·· ولكن صـوت الجرس وصلنى وأنا فى ذلك المكان تحت الأرض بطريقة مختلفة لم أسمعها من قبل ، فقد أصبحت لا أعرف متى بـدأ

رنين الدقة ومتى انتهى ·· الى أن توقف الرنين تماما وعاد الصمت يطبق على المكان كله ··

ولكن صوتا آخر بدأ يتسلل الى سمعى ·· لم أتبين فى البداية حقيقة ذلك الصوت ، ولكنى أدركت أنه صوت أناس قادمين نحو المكان ، وسمعت أيضا حديثا يدور بينهم ولكنى لم أتبين كلماته ··

ولن استطيع أن أصف الرعب الذى احسسته وأنا اسمع هذه الأصوات وهى تقترب منى رويدا رويدا ·· لقد تجمدت من شدة الخوف وأصبحت نصف ميت ·· ومرت دقيقة واحدة بدت لى وكأنها ساعة كاملة حتى أدركت انى وقعت مثل الثعلب فى المصـــيدة ·· وأن المهربين سيقبضون على لامحالة ، وســوف يلزموننى الصمت بطريقتهم المعروفة ·· وتذكرت فى هذه اللحظة حكاية « كراكـــى جونس » الذى وجد ميتا فى منطقة المقابر وقيل انه تقابل مع « ذى اللحية السوداء » فى تلك الليلة فقتله ··

وازداد رعبى وخوفى أضعافا مضاعفة حين سمعت صوت دخول أحد الرجال من نفس الفتحة التى دخلت منها ، وأن هذا الرجل قد بدأ يتحدث مع آخرين يقفون خارج الفتحة .. وكان لابد أن أختفى فورا فى أى مكان بتلك الحجرة .. ولاحظت وجود تابوت خشبى ضخم مدفون فى حفرة عميقة بجدار الحجرة ، ويعلو عن أرضيتها بنحو ستة أقدام .. وأسرعت بالتسلق وأدخلت جسمى فى المساحة الضيقة التى تفصل التابوت عن جدران الحفرة .. وبسبب ضيق المكان ، اضطررت أن أمدد جسمى راقدا على جانبى ..

وفى تلك اللحظات بدأ سير الرجال فى الممر ، وأخذوا يقتربون نحو الحجرة .. وبدأ ضوء الشموع التى يحملونها يتسلل الى الداخل . **وسمعت صوت « راتسى » وهو يقول :**

– سوف أقوم بسد الفتحة باحكام .. حتى لايعلم أحد بمكان وجودها !

فرد عليه صوت آخر :

ـ كن حذرا ·· ولاتدع أحـدا يراك أثناء قيامك بسد الفتحة !

ولاحظت أن عدد الرجال قد ازداد ·· وسـمعت أحدهم يقول :

ـ لقد كنت فى « دور شستر » منذ ثلاثة أيام ·· وهم يقولون هناك ان المهربين الثلاثة الذين تم القبض عليهم سيعدمون شنقا ·· وعلمت أيضا أن « ماسكيو » كان هناك ·· وأنه يصر على اعدام المهربين ·· !

فقال رجل آخر :

ـ آه « ماسكيو » ! أتمنى أن أراه لكى أقتله !

وقال رجل ثالث :

ـ ليتنى أرى « ماسكيو » هذا فى ليلة مظلمة ·· سوف أنتقم منه وأرديه قتيلا !

وأخيرا سمعت صوت « الزفير » وهو يقول :

ـ لا ٠٠ دعوا أمر « ماسكيو » لى وحدى ٠٠ أنا الذى سأتعامل معه وانتقم ٠٠ هل نسيتم انه قتل ابنى « دافيد » ؟!

فى تلك اللحظات أصبح الجو خانقا بداخل تلك الحجرة بسبب أنفاس الرجال ورائحة الشموع والمصابيح المضيئة ٠٠ ورائحة الصناديق والبراميل وما بداخلها من بضائع مهربة ٠٠ لذلك بدأت أشعر بالمرض ٠٠ وأحسست بألم شديد فى جانبى من طول الرقاد عليه فى مخبأى الضيق ٠٠ وفجأة سمعت اسمى يتردد على لسان « بارميتر » وهو بحار يسكن فى الطرف الشمالى من القرية ٠٠ قال « بارميتر » :

ـ هذا الصبى « جون ترنشارد » ٠٠ لقد دأب على التجول كثيرا فى منطقة المقابر ٠٠ انه يجلس فوق هذا القبر وينظر دائما نحو البحر ٠٠ لقد رأيته على هذا النحو عدة مرات ٠٠ وأخشى أن يكون هذا الصبى جاسوسا علينا ٠٠ يراقبنا ويخبر « ماسكيو » بتحركاتنا ٠٠ !

وتدخل «جريننج» وهو فلاح من قرية «رنجستاف» المجاورة لقرية « مون فليت » ·· وأضاف قائلا :

ـ نعم انت علي حق ·· فحين كنت مكلفا بمراقبة بيت « ماسكيو » لاحظت أن هذا الصبى « جون ترنشارد » يحوم كثيرا حول البيت ، وينظر كثيرا الى الداخل بنظرات زائغة غريبة ·· !

وماقاله « جريفنج » كان حقا ·· فقد كنت أتجول عصر كل يوم من أيام الصيف فى الطريق الصاعد الى أعلى التل وهو طريق مجاور تماما لبيت « ماسكيو » ·· ولكنى كنت افعل ذلك لسببين يختلفان تماما عما يقوله هذان الرجلان ··

السبب الأول أن النزهة فى ذلك الطريق تسعدنى كثيرا ·· والسبب الثانى هو انى كنت أتمنى أن أرى « جريس » ابنة « ماسكيو » اثناء قيامى بتلك النزهة ··

ولذلك فكثيرا ماكنت أجلس على سور خلف حديقة البيت لعلى امتع نظرى برؤية « جريس » وهى مرتدية

ردائها الأبيض النظيف وتبدو فى غايـــة الروعة ٠٠ وأحيانا كنت اقترب من نافذة حجرتها وألوح لها بيدى محييا ٠٠ بل وعندما علمت أن « جريس » قد مرضت ، امتنعت عن الذهاب الى المدرسة ، ولازمت جلستى فوق السور كل يوم ناظرا نحو غرفتهـــا التى ترقد فيهـا مريضة ٠٠

ولذلك فمن الصحيح انى كنت أراقب بالفعل بيت « ماســكيو » ٠٠ ولكنى لم أخبر « ماســكيو » بأى شىء ٠٠

وهنا بدا « راتسى » يتكلم فى صالحى :

ـ لا ٠٠ لا ٠٠ ان « جون ترنشارد » ولد طيب ٠٠ وقد أخبرنى انه يحب الذهاب الى منطقة المقابر حتى يتمكن من أن يرى البحر ٠٠ لأنه يحب البحر حبا جما ويتمتع بمنظره ٠

ولشدة دهشتى تدخل « الزفير » قائلا :

ـ ان « جون ترنشارد » ولد شجاع ٠٠ وكـــم

اتمنى ان يكون ابنا لى ·· انه فى مثل عمر « دافيد ·· وأنا أتوقع أن يصبح بحارا ماهرا فى المستقبل

أسـعدتنى هذه الكلمات البسـيطة التى قالهـا « الزفير » عنى ·· وكان من الواضح انه كان يقول هذه الكلمات بكل صدق ·· وفى حقيقة الأمر فقد كنت معجبا بشخصية « الزفير » وكنت أحبه ·· وحزنـت كثيرا عندما فقد ابنـه ·· وأوشـكت أن انهض من مخبأى وأقول بأعلى صوتى : هأنذا ·· جون ترنشارد بنفسه !

ولكنى استبعدت هذه الفكـرة الغبية من ذهنـى وواصلت الاختباء راقدا على جانبى ·· وبعد أن فرغ الرجال من وضع الصناديق والبراميل التى احضروها بداخل الحجرة ، جلسوا على الأرض ، وبدأ «جريننج» فى الغناء ·· ولكن «الزفير» أسكته على الفور وقال :

ـ الزم الصمت ايها المجنون ·· انـك تصـنع ضوضاء يمكنها أن توقظ أهل القرية !

واضاف « راتسى » :

ـ واذا استيقظ أهل القرية فسوف يعتقدون أنهم يسمعون صوت « ذى اللحية السوداء » وهو ينادى على الموتى من عائلة « الموهون » ·· ويطلب منهم مساعدته فى البحث عن جوهرته المفقودة !

ومن حديث هؤلاء الرجال تبين لـــى بســـهولة أن « الزفير » هو قائد هذه المجموعة وكبيرهم ·· وبعد مرور فترة صمت قصيرة ، سمعت أحد الرجال يقول :

ـ هيا بنا نذهب ·· فقد تأخر الوقت ·· وعلينا أن نعود الآن الى السفينة !

***

الفصل الخامس

سجين داخل القبر

أنصرف الرجال وخرجوا من الحجرة واحدا تلو آخر ·· وسمعت وقـــع اقدامهم وهـــم يعبرون الممر ليخرجوا من الفتحة الموجودة فى اخره ·· وأصبحت وحدى فى تلك الحجـــرة المملـــوءة بتوابيت الموتى وصناديق وبراميل البضائع المهربة ·· وظل الرجـــال يتحدثون لفترة طويلة فى كيفية سد الفتحة وحجبها عن الانظار بعد الخروج منها ·· وبالرغم من أن الرجال كانوا يتحدثون خارج الحجرة وبالقرب من نهاية الممر ، الا انى خشيت أن أخرج من مخبأى ، خوفـــا من أن

يعود احدهم الى الحجرة لسبب أو لآخر ·· وانتظرت الى أن اختفت الاصوات تماما ··

وبدأت اتدرك محاولا الخروج من حفرة التابوت المحفورة بأعلى جدار الحجرة ·· ولكن تبين لى أن الخروج من تلك الحفرة كان اصعب كثيرا من الدخول اليها ·· فالتابوت الخشبى الضخم الذى كان موضوعا بداخل تلك الحفرة كان قديما وتآكلت اخشابه بمرور الزمن وكادت أن تتحول الى تراب هش ·· وكان من المستحيل أن اصعد فوقه لأساعد نفسى فى الخروج من الحفرة ··

كنت قد اشعلت شمعتى لأوفر ضوءا كافيا أرى فيه اين أضع قدمى ·· وفجأة سقطت الشمعة من يدى ووقعت على أرض الحجرة ، وبدأت انا نفسى فى السقوط وراءها ·· وفى لمح البصر مددت يدى لأمسك بأى شىء يمنع سقوطى ، وحاولت الامساك بأعلى التابوت الخشبى ولكنه تحطم وسقطت فى النهاية على الأرض وسط عاصفة من التراب وقطع من الخشب

الهش المتاكل ، ولكنى أحسست بأنى امسك شـيئا فى يدى ٠٠ !!

وعثرت على شمعتى واشعلتها ٠٠ وفى الضــوء عرفت أن هذا الشىء الذى أمسكه فى يدى عبارة عن علبة صغيرة مصنوعة من الفضة التى يغطيها تـراب الزمن ٠٠ ويبدو أن تلك العلبة كانت معلقة برقبة جثة « جون موهون » صاحب اللحية السوداء المدفونة بداخل التابوت المتآكل ٠٠ ومن المؤكد اذن انها تحتوى على الجوهرة الثمينة !

ونفضت التراب المتراكم على سطح العلبة وحاولت فتحها الا أن هذه المحاولة قد باءت بالفشل فى البداية ٠٠ فحاولت مرة أخرى واخذت أضغط عليها بأصابعى الى أن انفتحت فى النهاية ٠٠

لم تكن هناك جوهرة ولا أية ماسة اخرى صغيرة أو كبيرة ٠٠ ولم أجد بداخل العلبة الفضية الا قطعة صغيرة من الورق عليها بعض الكتابات ٠٠ وعاودنى

الأمل مرة اخرى وقلت لنفسى ربما تتضمن تلك الورقة خطة توضح المكان الذى اخفيت فيه الجوهرة . وقربت الشمعة وبدأت اقرأ الكلمات التالية :

قد يعيش الرجل ثمانين عاما ..

يمشى قدما تحت سيل الدموع ..

فاشرب من بئر السعادة ..

لأن الموت سيأتى حتما ..

من جهة الشمال أو الجنوب ..

« جون موهون »

وبعد قراءة هذه الكلمات الفـــارغة ، تبددت كل احلامى وامالى فى العثور على الجوهرة الثمينة .. فهذه الكلمات التى كنت أظن أنها تتضـــمن خطة محكمة تبين المكان السرى الذى أخفيت فيه الجوهرة،لاتشير الى أى شىء من ذلك ، بل تشير الى نصيحة جوفاء لكى يسعى الانسان الى تحقيق السعادة لأن الموت سينهى



ونظرت الى مافى يدى ..

حياته ان عاجلا آو جـــلا ، حتى ولـــو عاش ثمانين عاما ٠٠

ولم يعد هناك أى مبرر لوجودى فى هذا المكان ، وعلى أن أعود الى البيت قبل أن يظهر نور الصباح ٠٠ وهكذا علقت العلبة الفضية حول رقبتـــى ٠٠ وبدأت السير بخطوات ثقيلة واتجهت نحو الفتحة التى دخلت منها والموجودة فى نهاية الممر ٠٠ وفوجئت بأن الفتحة قد سدت باحكام ٠٠ !!

توقعت فى البداية أن هذه المشكلة يمكن حلهـا بسهولة ، وما على الا ان ازيح طبقة الملاط التى تحيط بالحجر الذى يسد الفتحة ثم أزحزح الحجر وأصعد الى الخارج ٠٠ وعندما بدأت فى ازاحة الملاط بأصابعى وجدت أن الأمر صعب للغاية وقد يستغرق زمنا طويلا ٠٠ فمن الواضح أن « راتسى » قد نفذ عمله بطريقة جيدة كما وضع فوق الفتحة ركاما من كسرات الأحجار من بقايا القبور القديمة ٠

فى تلك الاثناء بدأ نور شمعتى يتضاءل ويخبو رويدا ·· ثم اختفى نهائيا وحل ظلام دامس ·· ولم يكن هناك حل سوى أن انتظر حلول الصباح حيث يتسرب ضوء النهار خلال كسرات الأحجار ، فاتمكن عندئذ من مواصلة ازاحة الملاط وزحزحة الحجر ·· ونظرا لأنى أصبحت أحس بقرصة الجوع وبشدة التعب والارهاق ·· لذلك فقد جلست على الأرض ، واستغرقت فى النوم ·· !

***

ولا ادرى كم مر على من الوقت مستغرقا فى هذا النوم ·· ولكنى عندما استيقظت ، لاحظت على الفور أن المكان لم يزل مظلما ، عدا بعض شعاعات خافتة وضئيلة تتسرب خلال كسرات الأحجار الصغيرة ·· وكانت شعاعات حمراء من نور الشمس الغاربة ·· ويلى ! ·· يبدو انى استغرقت فى النوم لمدة نهار كامل ·· وكانت هذه النتيجة مفاجأة كاملة ·· بل مفاجأة محزنة ·· ان معنى ذلك أن على أن أقضى ليلة أخرى

سجينا فى هذه المقبرة على ان انتظر نور الصباح فى اليوم التالى ··

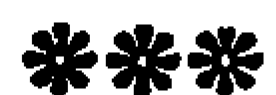
وبالرغم من شدة اليأس واحساسـى بالجـوع والعطش ، فقد حاولت فى الظلام ان افعل شـيئا ·· وحاولت لمدة تزيد على ساعة كاملـة أن أخربش فى الملاط وزحزحة الحجر ·· وضاع كل هذا الجهد دون حدوى ·· ولم أصل الى اية نتيجة سوى انى اجهدت نفسى وجرحت أصابعى ··

واضطررت الى الجلوس على الأرض لأحصل على بعض الراحة ·· ورأيت آخر شعاع من الضوء الأحمر وهو يتوارى ويختفى ·· وعاد الظلام دامسا مـرة أخرى ·· فرقدت على الأرض ووضعت ذراعى فـوق عينى المغمضتين حتى لا أشعر بمدى كثافة الظلام فى سجنى بتلك المقبرة ··

وبعد فترة طويلة فزعت واقفا ·· واخذت انادى باعلى صوتى : يامستر جلينى ·· ياراتسى ·· ياالزفير ·· تعالوا وانقذونى من هذا السجن المظلم ·· !!

ولكن كل هذه النداءات ضاعت عبثا ولم يسمعها احد ·· فعاودت محاولاتى فى خربشة الملاط وزحزحة الحجر ·· واستمرت محاولاتى عدة ســاعات الى ان ارتميت على الأرض من شدة التعب واستغرقت فى النوم مرة أخرى ··

وبعد عدة ساعات تنبهت الى شعاعات من ضوء النهار تتسرب خلال كسرات الحجــر ·· فنهضـــت متثاقلا وعاودت محاولاتى المجهدة ·· وفجاة شعرت بظلام من نوع أخر ·· كما لو كانت عيناى مغلقتين ·· وكأن راسى تلف وتدور ·· وتدور ·· وســقطت على الأرض مغشيا على ·· !



الفصـل السادس

فى حانة ((هواى نوت)) ..

وعندما عدت الى وعيى .. وجدت نفسى راقدا فوق سرير نظيف .. وكان نور الشمس يغمر الحجرة ويسطع مبهرا خارج النافذة .. آه .. هاهو نـــور الشمس العظيم الذى طالما تمنيت أن أراه مرة أخرى .. وحمدت الله على هذه النعمة المتمثلة فى نور الشمس .

خيل الى أنى راقد فى حجرتى ببيت خالتى..وانى حلمت حلما مفزعا عن المهربين وعن السجن فى مقبرة مظلمة مغلقة .. وهممت بالقيام من الفراش ولكنى ارتميت على ظهرى مرة أخرى ولم استطع التحـــرك

وشعرت بانى ضعيف جدا ومريض ·· واحسست بشىء ما معلق برقبتى ، فمددت يدى لأتحسسه ، ففوجئت بأن هذا الشىء هو العلبة الفضية التى كانت معلقة حول رقبة «جون موهون» صاحب اللحية السوداء والتى عثرت عليها مصادفة فى تابوته ·· الموضوع اذن لم يكن حلما مفزعا بل كان حقيقة واقعة ·· !

فى تلك اللحظة فتح باب الحجرة ودخل « الزفير بلوك » فرفعت يدى وصحت مندهشا :

ـ الزفيـر ·· الزفير ·· انقذنـى ·· انقذنـى ارجوك ·· !!

تقدم « الزفير » نحوى ·· ووضع يده الحنون فوق راسى ، وقال بصوت خفيض كله حنان وشفقة :

ـ اهدأ يابنى ·· انت فى أمان هنا ولن يضرك شىء ·· اشرب هذا ·· !

وا طانى كوبا من اللبن الساخن ·· أخذت اشربه على مهل ·· واخبرنى « الزفير » بانى الآن فى حانة

« هواى نوت » ·· ولم يضف اية تفاصيل أخرى ·· وطلب منى أن أهدأ وأواصل النوم ·· ووعدنى بأن اعرف التفاصيل فيما بعد ·

ومرت نحو عشرة ايام او ربما اكثر من ذلك قبل أن استرد وعيى تماما واستعيد صحتى وقواى ·· وكان « الزفير » يقوم بتمريضى وخدمتى طول الوقت وكأنه أم عطوف رحيمة ترعى طفلها المريض ·· !

***

كان « المستر جلينى » هو أول من لاحظ تغيبى عن الحضور الى المدرسة ، فظن أنـــى مريض ·· وذهب الى بيت خالتى ليطمئن على ·· ولكن خالتى اخبرته بانى قد هربت ولاتعرف اين ذهبت ·· وعندما التقى « مستر جلينى » مع « راتسى » سأله عنى فلم يخبره « راتسى » بشىء لأنه لايعرف شيئا ··

ولكن « جريننج » حضر الى حانة « هواى نوت » وقال انه سمع صوتا يشبه النداء كان يصدر من مقبرة

« الموهون » وبرر ذلك بأنه صوت ذى اللحية السوداء الذى يصيح وهو يبحث عن جوهرته الضائعة ··

« الزفير » وحده هو الذى استنتج ان شخصا ما محبوس داخل المقبرة ولم يستطع الخروج منها بعد ان قاموا بسد الفتحة ·· ولذلك فقد اصطحب «راتسى» معه ، وذهب الاثنان الى المقبرة ·· وهناك وجدانى راقدا على الأرض شبه ميت ·

وكان « الزفير » واثقا تماما من انى لن اخبر احدا بسر المخزن والبضائع ·· اما « راتسى » الذى كان يتردد ليطمئن على بين حين و خر فقد كان يقول :

– جون ·· لا أحد يعرف اننى انا و « الزفير » فقط قد عثرنا عليك بالمقبرة ·· وانك تعرف الآن سر المخزن وما فيه من بضائع ·· احتفظ بهذا السر لنفسك ياجون ولا تخبر به أحدا ايا كان !

***

وعندما استعدت تماما قواى وعافيتى ·· ذهبت الى بيت خالتى التى كانت غاضبة منى الى اقصى حد ، فلم تستمع الى كلمة واحدة ، بل أخذت تكدرنى وتوجه الى كلمات قاسية ·· تماما مثل الكلمات العنيفة القاسية التى وجهتها الى « راتسى » حين جاء ليخبرها عن مرضى ومكان وجودى بحانة « هواى نوت » ·· وبالرغم من علمها بالمكان الذى أرقد فيه مريضا فانها لم تذهب الى الحانة لتزورنى أو تطمئن على صحتى ··

وطردتنى خالتى من بيتها وهى تقول :

ـ اذهب الى حيث كنت ·· لعل الحانة تنفعك

وهكذا خرجت مطرودا من البيت الوحيد الذى آوانى ·· واغرورقت عيناى بدموع غزيرة ·

وذهبت الى حانة « هواى نوت » ·· وأخبرت « الزفير » بما جرى ·· فبدا عليه السرور وقال بعطف :

ـ ليكن ·· تعال وعش معى فى الحانة ·· ستكون خير بديل لابنى « دافيد » ·· !

وهـــكذا انتقلت لأعيش فى الحانة ٠ وقامـــت خالتى بارسال حقيبة وضـــعت فيهـــا كل ملابســـى ومتعلقاتى ٠٠

ومر وقت طويل ٠٠ واستقرت حياتى مع « الزفير » فى الحانة ٠٠ وفى كل صباح كنت اذهب الى المدرسة ٠٠ وامضى أوقات مابعد الظهر فى صيد الأسماك أو فى اداء بعض أعمال الحديقة ٠٠

وفى بعض الأحيان كنت أطلب منه أن أشترك معه فى أعمال تهريب البضائع ٠٠ ولكنه كان يطلب منى أن انتظر لأنى مازلت صغير السن ٠٠ ومع اصـــرارى على الرغبة فى مشاركته فى هذه الأعمال ٠٠ أتـــاح لى «الزفير » فرصة الذهاب فى السفن والقوارب التى تقوم بنقل البضائع المهربة من البحر الى الشاطىء ٠٠ ومع ذلك فلم أجسر على الذهاب الى مقبرة « الموهون » مرة أخرى ٠

وطول الوقت كنت أعلق حول رقبتى رباطا تتدلى

نه علبة « جون موهون » الفضية بعد أن قمت بتنظيفها
تلميعهـــا ٠٠ وكثيرا ماكنت أجلس مع « الزفيـر »
نحاول معا أن نفهم شيئا مما تشـــير اليه الكلمـات
لكتوبة على الورقة الصغيرة التى مازلت احتفظ بهــا
اخل العلبة ٠٠ !

***

الفصل السابع

سقوط الدبوس

فى بداية الربيع وصل الى « مون فليت » رجل جاء من « دورشستر » وعلق على باب حانة « هواى نوت » ورقة كبيرة كتب عليها بحروف واضحة أن موظفا كبيرا تابعا للملك سيزور « مون فليت » بعد سبعة أيام ٠

وكان هذا الموظف الكبير على درجة عالية من الأهمية ٠٠ وهو يحضر الى قرية « مون فليت » مرة واحدة كل خمس سنوات ليقوم بالتفتيش على املاك الملك ٠ ولم يكن الملك يملك شيئا فى « مون فليت » سوى

حانة « هواى نوت » اما بقية الأراضـــى الواقعة فى زمام القرية فقد كانت مملوكة لعائلة « الموهون » ٠٠ ومع ذلك فقد كان هذا الموظف الكبير يحضر الى القرية ليعمل مزادا على تأجير الحانة لمدة خمس ســنوات تالية ٠

وكان « الزفير بلوك » يدير هذه الحانة منذ زمن طويل ٠٠ وفى كل مرة كان يحضر فيها الموظف الكبير ليقيم المزاد ، كان المزاد يرسو عليه ويتولى «الزفير» ادارة الحانة لخمس سنوات تالية ٠

وفى اليوم الموعود رأيت الموظـــف الكبير راكبا حصانه ويسير فى الشارع الرئيسى بالقرية ٠٠ فأسرعت بابلاغ « الزفير » الذى طلب منى أن أذهب الى بيـت خالتى وأطلب منها أن تعطينى « شمعة » ٠٠ وكانت قد مرت فترة طويلة منذ أن طردتنى خالتى من بيتها ٠٠ ومنذ ذلك الحين لم أذهب الى بيت خالتى أبدا ٠٠ ومع ذلك فقد أعطتنى خالتى الشمعة التى طلبتها وهى تقول

انها تأمل أن تبعث هذه الشمعة بعض الضوء فى قلبى المظلم ٠٠ !

وعندما عدت الى الحانة ، رأيت حصان الموظف الكبير مربوطا خارج بابها ، وقد تجمع بعض الناس من اهالى القرية ٠٠ وفى الداخل رأيت الموظف الكبير جالسا الى المنضدة الرئيسية وامامه وجبة جيدة من الطعام أعدها له « الزفير » وقدمها اليه ٠٠

واعطيت « الزفير » الشمعة التى طلبها منى فوضعها فى منتصف المنضدة ٠٠ وهنا قام الموظف الكبير برشق دبوس على بعد بوصة واحدة من أعلى الشمعة !

وكانت طريقة المزاد تتيح لأى شخص أن يدخل المزاد ويعرض مبلغا أكبر من المبلغ الذى يعرضه المزايد الأخير ٠٠ ويظل المزاد قائما طالما ان الدبوس المرشوق فى جسم الشمعة موجودا فى مكانه ٠٠ وتظل الشمعة مشتعلة الى ان تسيح المنطقة المرشوق فيها الدبوس

ويسقط الدبوس من جسم الشمعة ، وعندئذ يرسو المزاد على آخر شخص تقدم بسعر منافس ٠

وما أن انتهى الموظف الكبير من تناول طعامه حتى بدأ العمل في الفور وأشعل الشمعة ٠٠ وعرض « الزفير » مبلغ اثنى عشر جنيها كايجار سنوى لحانة « هواى نوت » ٠٠ وهو نفس المبلغ الذى كان يدفعه فى ايجاراته السابقة ٠٠ وجلس الجميع حول المنضدة يتحدثون فى مختلف الأحاديث بينما ظلت الشمعة مشتعلة ، ونارها تقترب من المنطقة التى رشق فيها الدبوس ٠٠

وفجاة فتح باب الحانة ودخل « ماسكيو » واتجه نحو المنضدة التى يتحلق الجميع حولها ٠ وهنا وقف « الزفير » وحاول أن يمنعه وقال بصوت مرتفع :

ـ انت لست صديقا لى يا « مستر ماسكيو » ٠٠ وساكون سعيدا لو أريتنى ظهرك بدلا من أن ترينى وجهك ٠٠ وانى امنعك من الجلوس الى هذه المائدة !



وأخذت الشمعة المشتعلة تذوب ببطء

كنت اعرف تماما مايدور فى ذهن « الزفير » فى تلك اللحظة ، فقد كانت هذه المائدة بالذات هى التى مددوا عليها جثة ابنه « دافيد » بعد مقتله ٠٠ وعلى اية حال فان « ماسكيو » لم يهتم بتهديدات « الزفير » وتقدم الى الموظف الكبير وساله :

ـ والآن ايها الموظف الكبير ٠٠ انى ارى نار الشمعة وقد اوشكت على الوصول الى المنطقة التى رشق فيها الدبوس ٠٠ واننى اريد أن انتهى من عملى هنا بسرعة لأن على ان اذهب الى « بريدبورت » لاداء بعض الأعمال الأخرى ٠٠ ماهو آخر مبلغ تقدم به أى شخص فى هذا المزاد ٠٠ ؟ !

وشرح الموظف الكبير ماتم حتى الآن من شئون المزاد ٠٠ وقال ان « الزفير » عرض اثنى عشر جنيها كايجار سنوى للحانة ٠٠ واذا سقط الدبوس قبل أن يتقدم شخص بعرض مبلغ أعلى ، فان المزاد فى هذه الحالة سيرسو على « الزفير » باعتباره صاحب العرض الأخير ٠٠

وبعد ان انتهى الموظف الكبير من هذا الشرح ، طلب من « الزفير » ان يأمر باعداد حصانه للرحيل لأنه سيغادر الحانة فور سقوط الدبوس ورسو المزاد عليه ٠٠ فأمر « الزفير » على الفور بتجهيز حصان الموظف الكبير للرحيل ٠٠ وحملق الجميع فى لهيب الشمعة وهو يقترب من الدبوس ٠ وهنا قال «ماسكيو» بصوت مرتفع :

ـ انى اعرض ١٢ جنيها ايجارا سنويا لهذه الحانة ٠٠ !

لم يلتفت « الزفير » اليه ٠٠ ولكنه قال بصوت جهورى :

ـ وأنا أعرض ٢٠ جنيها ٠

فقال « ماسكيو » :

ـ وأنا أعرض ٢١ جنيها

وهكذا استمرت المزايدة بين الرجلين الى ان قال « ماسكيو » :

ـ ٩١ جنيها ٠٠ !

وهنا وقف الموظف الكبير مندهشا وصاح فيهما

ـ هل جننتما ؟! ٠٠ ماهذا الذى يحدث ؟! ٠٠ يا « مستر الزفير بلوك » احتفظ بنقودك ولاتغامر بها ٠٠ واذا كان هذا الجنتلمان يرغب فى ادارة هذه الحانة مهما كان الثمن الذى سيدفعه فدعها له ٠٠ وسوف اتيح لك الحصول على حانة « الحصان الأبيض » فى بلدة « بريدبورت » ٠٠ وهى افضل بكثير من حانة « هواى نوت » وتدر ربحا أكبر ٠٠

ولكن « الزفير » لم يلتفت الى ماقاله الموظف الكبير وقال فى ثبات :

ـ انى اعرض ١٠٠ جنيه !

فقال « ماسكيو » على الفور :

ـ ١٣٠ جنيها ٠٠

واشتعلت المزايدة مرة أخرى الى ان قال «الزفير» :

ـ ١٩٠ جنيها ··

فرد عليه « ماسكيو » :

ـ ٢٠٠ جنيه ··

وهنا سقط الدبوس من جسم الشمعة ·· !

وعندما وقف « الزفير » تصورت للحظة انه سوف ينقض كالوحش الكاسر على « ماسكيو » ويقتلـه ·· ولكنه لم يفعل شيئا من ذلك وظل محتفظا بهدوئه ولـم يقل كلمة واحدة ·· وعندئذ قال له الموظف الكبير وهو يضع يده فوق ذراعى :

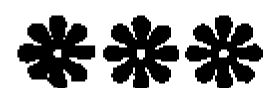
ـ هاه يامستر « الزفير » ·· هل تريد أن تأخذ حانة « الحصان الأبيض » فى بلدة « بريدبورت » ؟! ·· ان هناك مدرسة جيدة يسـتطيع ابنك هذا أن يلتحق بهـا ·

وهنا أجاب « الزفير » :

ـ أشكر لك لطفك وكرمك ٠٠ ولكنى عندما أغادر هذا المكان فلن أدير حانة أخرى ٠٠ !

واستدار الموظف الكبير ، وشرع فى الخروج من الحانة ٠٠ وسمعته وهو يركب حصانه وينطلق به فى الشارع الرئيسى بالقرية ٠٠

أما « الزفير » فقد ظل جالسا الى المائدة واضعا راسه بين يديه ٠٠ !



الفصل الثامن

شخص يتصنت بالباب ..

تلقى « ماسكيو » نظرات غاضبة من جميع رجال القرية ووجهت اليه النساء كلمات قاسية حين كان يسير فى الشارع الرئيسى بالقرية عصر هذا اليوم .. لقد غضب الجميع عندما علموا بما فعله فى المزاد ..

ولعدة ايام تالية ، لم يجسر « ماسكيو » على السير فى هذا الشارع .. وقال بعض الرجال الذين كانوا يراقبونه انه سافر الى « واى ماوث » ليقابل « رجال الضرائب » .. وانه طلب منهم أن يرسلوا

فرقة منهم الى « مون فليت » حتى يقبضوا على المهربين فى أول عملية يقومون بها ••

وعندما وصلت هذه الأخبار الى اسماع « الزفير » قرر أن من الأفضل التوقف عن عمليات التهريب لفترة حتى ينجلى الأمر •• ومع ذلك ففى مســاء أحد الأيام أخبرنى « الزفير » بأن شحنة من البضائع قد وصــلت وأن علينا أن نستلمها ••

وقال « الزفير » وهو يشرح تفاصيل العمليه :

ـ وصلتنــى أخبار بأن الرجـــال لايســـتطيعون الاحتفاظ بتلك البضائع فىبلدة « ســـان مالو » لفترة أطول من ذلك •• ونظرا لأن « ماسكيو » أصبح الآن يراقب جميع التحركات •• فلن استطيع احضار هذه البضائع الى « مون فليت » ولن اســـتطيع بالتالــى اخفاءها فى المخزن السرى بمقبرة « الموهـــون » •• ولهذا فقد أبلغت السفينة « بون أدفنشر » التى تحمل هذه البضائع أن تتوجه شمالا الى منطقة تسمى « كهف

بيجروف » وهى منطقة تقع بالقرب من « رأس هور »
•• وكان الرجال يستخدمون هذا الكهف لفترة طويلة
قبل أن نستخدم المخزن السرى بمقبرة « الموهون » ••
يمكننا أن نخفى البضائع فى ذلك الكهـــف لفترة ••
وعلينا ان نرحل الى « رأس هور » حتى نصل اليها فى
الساعة الخامسة من صـــباح الغد •• انى أود أن
نصل قبل ذلك لأن الشمس تشرق فى الساعة الخامسة
•• ولكن السفينة لن تستطيع الوصول الى هناك قبل
الخامسة ••

فى تلك اللحظة بالضبط شعرت بلفحـــة من الهواء
البارد تهب على ظهرى •• فالتفت الى الخلـف لأرى
ما اذا كانت النافذة مفتوحة وتسرب منها هذا الهواء
البارد ، ولكنى رأيت النافذة مغلقة •• فلابد أن الهواء
قد تسرب من الباب بعد أن فتح •• وقمت على الفور
واتجهت نحو الباب فوجدته مغلقا ، ولكنى شككت فى
الأمر وفتحت الباب بسرعة وخرجت الى الشارع فلم
اتمكن من رؤية أى شىء فى الظلام لأن الليلة كانت غير

أن نسير على شاطىء البحر لنبحث عن بيت صغير يكون بالقرب من منطقة « كهف بيجروف » التى تقع بالقرب من البحر ·· ان هذا الكهف يصلح تماما لاخفاء بضائعنا ·· لقد كان المهربون يستعملونه منذ مئات السنين ·· !

ولم أقل شيئا ·· ولزمت الصمت ·· وبالرغم من أنى قد سمعت جميع كلمات « الزفير » كلمة كلمة ·· الا أن ذهنى كان سارحا فى اشياء أخرى ·· وعندئذ قال « الزفير » :

ـ يبدو انك متعب قليلا ياجون ·· هيا اذهب ونم على سريرك بعض الوقت !

وبالفعل كنت متعبا لأسباب أخرى تطير النوم من عينى ·· كنت حزينا لاضطرارى الى مغادرة « مون فليت » وبالتالى فراق « جريس ماسكيو » التى أحببتها من كل قلبى ·· والتى كثيرا ماكنت أقابلها وهى تتجول

بداخل الحانة ٠٠ واعتقد أن علينا ان نشعل شمعة ونفتش جميع الحجرات حجرة حجرة ٠٠

قال « الزفير » وهو غير مقتنع تماما :

– اعتقد أن الهواء البارد الذى هب عليـك هو الذى حرك الباب واغلقه ٠٠ ومع ذلك فلا بأس من ان نفعل ماتقول ونشعل شمعة ٠٠ هيا ٠٠ !

ودرنا بالشمعة وفتشنا كل ركن فى الحانة ، ولـم نعثر على شىء ٠٠ فضحك « الزفير » قليلا وطلب ان نعود الى الجلوس جوار المدفأة ٠٠وعــاود « الزفير » حديثه قائلا :

– لم يعد امامنا سوى اسبوعين فقط حتى نغادر هذه الحانة ٠٠ انه لأمر محزن ان تصبح أبواب هذه الحانة موصدة فى وجهى ٠٠ لقد توارثت عائلتى حق ادارة هذه الحانة لأكثر من مائة سنة ٠٠ ولا استطيع الآن ان اعمل شيئا لاستعادتها ٠٠ ولهذا فعلينا فى الغد

أن نسير على شاطىء البحر لنبحث عن بيت صـغير يكون بالقرب من منطقة « كهف بيجروف » التى تقع بالقرب من البحر ·· ان هذا الكهف يصلح تماما لاخفاء بضائعنا ·· لقد كان المهربون يســتعملونه منذ مئات السنين ·· !

ولم أقل شيئا ·· ولزمت الصمت ·· وبالرغم من أنى قد سمعت جميع كلمات « الزفير » كلمة كلمة ·· الا أن ذهنى كان سارحا فى اشياء أخرى ·· وعندئذ قال « الزفير » :

ـ يبدو انك متعب قليلا ياجون ·· هيا اذهـب ونم على سريرك بعض الوقت !

وبالفعل كنت متعبا لأسباب أخرى تطير النوم من عينى ·· كنت حزينا لاضطرارى الى مغادرة « مـون فليت » وبالتالى فراق « جريس ماسكيو » التى أحببتها من كل قلبى ·· والتى كثيرا ماكنت أقابلها وهى تتجول

فى « غابة مانور » القريبة من بيتها ·· وكنا نتجول سويا حين يكون ابوها غائبا عن البيت ·· والحقيقة انى اخبرت « جريس » بكل شىء ·· لأنى كنت أثق فيها ثقة لاحد لها ·· وأعلم تماما انها لايمكن أن تبوح باسرارى لأى أحد كان حتى لأبيها ·· اخبرتها عن الممر السرى والمخزن وعن اعمال تهريب البضائع التى نقوم بها ·· وعندما أخبرتها بكل هذه الأسرار ، التفتت الى وقالت :

ـ سوف أشعل شمعة وراء زجاج نافذة حجرتى فى كل ليالى الشتاء لعلك تراها وتسترشد بها وانت تعمل فى البحر ··

وبالفعل نفذت « جريس » وعدها ·· ولاحظ كثيرون من البحارة أن ضوء هذه الشمعة يظهر من ناحية البحر ، وان هذا الضوء يرشدهم عندما يقتربون من الشاطىء ، ولذلك فقد سماه البحارة « منارة ماسلكيو » ·· ولكن احدا لايعرف السبب الحقيقى لوجود تلك

الشمعة المضيئة التى تشعلها « جريس ماسكيو » كل ليلة ٠

والآن ٠٠ تقرر أن اغادر « مون فليت » ٠٠ وربما لن استطيع أن اقابل « جريس » أو اراها بعد ذلك أبدا ٠٠ ولهذا قررت أن اذهب فى الصباح الى « غابة مانور » القريبة من بيتها ٠٠ لعلى اراها واخبرها بكل شىء ٠٠ !

***

الفصـل التاسع

« جريس ماسكيو » ..

كان اليوم التالى من الأيام التى سأتذكرها طوال حياتى .. ولن أنسى أبدا ماحدث فيه ..

فى نحو الساعة العاشرة صـــباحا توجهت الى « غابة مانور » القريبة من بيت « جريس » .. وكان هناك ثقب على جانب التل المواجه للبيت يكفى لكـى اختفى فيه عن الانظار بالرغم من أنى اتمكن من رؤية كل شىء من هناك .. وظللت أرقب البيت لعلى أرى « جريس » وأناديها ..

كان الصباح مشرقا بنور الشمس الدافئة ·· وكان الهواء لطيفا يحرك براعم الاشجار وأوراقها الصغيرة الخضراء التى اخذت تنبت على أغصانها ·· ويلاعب الأعشاب وزهورها الصفراء الجميلة ·· واثناء تمتعى بهذا المنظر فتحت العلبة الفضية التى أعلقها حـول رقبتى وقرأت أول سطر فى الورقة الصغيرة :

قد يعيش الرجل ثمانين عاما ···

وعندئذ بدأت أضحك على نفسى وعلى أحلامـى الغريرة الماضية ·· احلامى عن العثور على جواهر وعلى صـناديق مملوءة بالذهب ·· وعن الجوهرة الثمينة التى خبأهـا « جون موهـون » ذو اللحية السوداء فى مكان ما ·· !

***

لن اكتب هنا كل مادار من أحـاديث بينى وبين « جريس » عندما تقابلنا ·· وسوف أشـير فقط الى

ماقالته « جريس » عن حزنها بسبب مغادرة « الزفير » لحانته وابتعاده عن « مون فليت » ·· وعن حزنهـــا الأكبر لأنى سوف افارقها وابتعد ·· ولم تتكلم «جريس» بأى شىء ضد ابيها ، ولكنى لاحظت مدى الألم الذى سببه لها تصرف ابيها ضد « الزفير » ··

والحقيقة ان الحزن الذى ابدته « جريس » على هذا النحو كان من اسباب سعادتى ·· لأنى تأكدت الآن من انها تحزن لفراقى ·· ولأنــى اصــبحت ذا أهمية عندها ·· وبعد فترة بدأت « جـــريس » تقول بعض الأخبار عن ابيها ··

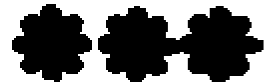
قالت انه فى التاسعة من مساء الأمس وهو نفس الوقت الذى كنت أجلس فيه مع «الزفير» لنتحدث جوار المدفأة ·· قام ابوها من مقعده ·· وقال انه ســـوف يخرج من البيت ليتنزه قليلا فى الحديقــــة ·· وكان هذا أمرا غريبا لأن الليلة كانت باردة · ·وبعد نحو ساعة من غيابه خارج البيت ، عاد مسرعا وقال ان عليه أن يسافر الى « واى ماوث » الآن فورا ·· وانه من

المحتمل أن يغيب هنـــاك نحو يومين · ولبس معطفه وقبعته وانصرف ··

كانت « جريس » مندهشة وهي تحكى لى كل هذه الأخبار ·· ولكنى بدأت اخاف وافكر فى الأمر بجدية ·· ترى ما الذى دفع « ماسكيو » ليتصرف على هذا النحو ويسافر الى « واى ماوث » بكل هذه السرعة ؟!

واخيرا اخبرتنى « جريس » بأن الوقت قد تأخر وحان موعد عودتها الى بيتها ·· وودعتنى ··

وانصرفت آخذا طريقى الى حانة « هواى نوت » ·· والحزن يملأ قلبى ·· وبالرغم من انى لم اكن اعرف شيئا عما يخبئه لى المستقبل ، الا انى احسست بانـــى سأتعرض من الآن الى الكثير من المتاعب ·· !



الفصـل العاشر

القبض على ((ماسكيو)) ..

غادرنا ـ أنا و « الزفير » ـ حانة « هواى نوت » قبل الموعد الذى حدده « الزفير » من قبل . ذلك لأن أخبارا وصلته من بحارة السفينة « بون ادفنشر » بأن باستطاعتهم الوصول قبل الموعد الذى حددوه من قبل بنحو ساعتين .. وعلى هذا فقد غادرنا « مون فليت » ووصلنا الى أعلى التل المجاور لها فى نحو السابعة مساء .. ومن هناك بدأنا رحلتنا الى « راس هور » التى تبعد عن هذا التل بنحو خمسة عشر ميلا ..

وحل علينا الظلام بعد مسيرة حوالى نصف ساعة

.. ولكن الليلة لم تكن مظلمة تماما مثل ليلة الأمس فقد كانت السماء صافية وكان الهواء لطيفا ودافئا .. وواصلنا رحلتنا فى صمت ، ورأينا عـدة علامـــات بيضاء على الطريق .. وهى علامات وضعها « رجال الضرائب » .. وأخيرا وصلنا الى مكـــان واســـع تغطيه الأعشاب .. وعلمت من « الزفيز » ان هذا المكان هو قمة « رأس هور » ..

وتعتبر « رأس هور » أعلى نقطـــة على طـــول الساحل .. وكان جانبها المواجـــه للبحر عبارة عن تكوين صخرى شديد الانحدار ، بل ويكاد يكون عموديا على مياه البحر وأمواجه الصاخبة .. وكان هنـــاك طريق ضيق جدا ووعر جدا يلف حول هذا التكوين الصخرى من جانب الى جانب .. وهو طريق منحدر مابين قمة الرأس وأرض الشاطىء .

واستغرق هبوطنا عبر هذا الطريق نحو ربع ساعة حتى وصلنا فى النهاية الى أرض الشاطىء .

ولم نكن وحدنا هناك ·· كان هناك نحو عشرين رجلا فى انتظارنا ·· كان بعضهم يقف على الرمال ·· وبعضهم الآخر يجلس فوق الصخور ·· كما كان بعض منهم فوق ظهور الخيل ·· وكانوا جميعــا يتحدثون باصوات خفيضة ··

جلست على الأرض لشـــدة احســـاسى بالتعب والارهاق ·· وبعد لحظة رايت « راتسى » قادما نحوى وقال :

ـ أهلا ياجون ·· انت و « الزفيـر » ستغادران « مون فليت » وتتركانى وحدى ·· كثيرا مافكرت فى أن ارحل انا ايضا ·· ولكنى لا اعرف من ذا الذى سيعتنى بالقبور من بعدى !

قلت وانا اغالب رغبتى فى النوم :

ـ لا تقلق ·· فسوف تجدون شخصا آخر يحل مكانك ·

ومع ذلك فقد ظل « راتسى » يواصل حديثه ، وتكلم فى موضوعات عدة ولكنى لم اتنبه الى اغلبها لأنى كنت شبه نائم ·· واخيرا اطلقت الصيحة المتفق عليها كاشارة للتحرك ·· فقام جميع الرجال وساروا تجاه الشاطىء ·· وعندما وصلنا الى هناك كان أول القوارب قد وصل الى الشاطىء وسمعت وقع أقدام البحارة وهم يخوضون مياه البحر جوار الشاطىء ليربطوا قواربهم ·· ثم بدأ العمل بهمة ، وأخذ الرجال يتحركون مابين القوارب وأرض الشاطىء يحملون البضائع الى البر ، ثم يحملونها فوق ظهور الخيل ، وكانت هذه العمليات تتم فى اضواء صفراء خافتة تصدر من مصابيح صغيرة يحملها الرجال ··

وبعد نحو ساعتين انزلت آخر قطعة من البضاعة الى البر ، وبدأ الرجال يعدون الخيول المحملة بالبضائع للرحيل ، وحمل رجال آخرون بعض الصناديق والبراميل على ظهورهم ، وبدأ الجميع فى التحرك نحو الطريق الضيق المنحدر الذى يصل بين أرض الشاطىء وقمة « رأس هور » العالية ·

وما أن وصلنا الى بداية هذا الطريق الصاعد ، حتى رأيت شيئا ما يتحرك خلف احدى الاشـــجار ٠٠ ورأى بعض الرجال مارأيت ٠٠ وحدث صياح وهرج ٠٠ وانزل الرجال ماكانوايحملونه من بضائع واخذوا يجرون نحو الشجرة ٠٠ وفى الحال ظهر خلف الشجرة شخص ما انطلق يجرى هاربا بأقصى مايستطيعه من سرعة ٠٠ وكان « دامن » و « جاريت » أقرب رجلين للرجل الهارب ٠٠ وانطلقا خلفه بخطـوات أســـرع وأقوى ٠٠

وفوجئت بأن الرجل الهارب هو « ماســـكيو » بعينه ٠٠ وعرفت أنه يجرى هربا من المـــوت ٠٠ ان الامساك به هو نهايته المحتومة ٠٠ ولذلك فقد بذل جهدا جبارا فى الجرى ٠٠ ولكن « دامن » و « جاريت » كانا أسرع منه واكثر شبابا ٠٠ فلحقا به وأمسكاه ٠٠

ونظرت فى تلك اللحظة الى وجه « الزفير » ٠٠ بدا وكأنه كان يتوقع حدوث خطر ما فاستعد له منذ البداية ٠٠لقد تحققت أمنية حياته ٠٠ وها هو « ماسكيو »

وقد وقع فى الفخ كحيوان ذليل ·· وكدت أقرأ على وجه « الزفير » قرار الموت ·· انتقاما من «ماسكيو» ··

وتقدم « دامن » و « جاريت » وهما يمسكان « ماسكيو » من ذراعيه ويدفعانه دفعا الى الأمام ·· وأصابنى المنظر ببعض الاستياء ، فقد كانت هذه أول مرة أرى فيها رجلا يعامل على مثل هذا النحو من الاذلال والمهانة ·· لقد فقد « ماسكيو » قبعته وتناثر شعر رأسه على وجهه الأبيض الشاحب ·· وصاحت عدة أصوات غاضبة :

ـ اقتلوه ·· !

ـ اشنقوه ·· !

ـ اطلقوا عليه النار ·· !

ـ اقذفوا به الى البحر من أعلى قمة « رأس هور » ·· !

وخلال هذا الصياح ، شاهد أحد الرجال مسدسا فى جيب المعطف الذى كان يرتديه « ماسكيو » فتقدم

على الفور وأخرج المسدس والقاه على الأرض بجانب قدمى « الزفير » ·· وهنا انطلق صوت « الزفير » وكان أعلى الأصوات جميعا :

ـ لن ينتقم منه أحد سواى ·· ألا تذكرون أنى طلبت منكم أن تتركوا أمر هذا الرجل لى وحدى ·· لقد قتل ابنى الوحيد ·· وأنا وحدى الذى سأتعامل معه وأعرف كيف انتقم ·· هيا ·· أوثقوا هذا الرجل من يديه وقدميه وألقوه على الأرض هنا ·· وعليكم الآن أن تذهبوا قبل أن يظهر نور الصباح ·· والوقت ضيق ·· هيا ·· !

وخلال دقائق تحرك الجميع نحو الطريق الصاعد مرة أخرى ·· الخيل المحملة فى المقدمة ·· وخلفها الرجال الذين يحملون الصناديق والبراميل على ظهورهم ·· ذهب الجميع وبقى ثلاثة أشخاص فقط على أرض الشاطىء :

« ماسكيو » و « الزفير » وأنا ··

ومسدس كان ملقيا على الأرض ·· !

***

الفصل الحادى عشر

مصرع « ماسكيو » ..

فى الحقيقة انى كنت أنوى اللحاق بالرجال ، حتى لا أبقى بهذا المكان وأرى المنظر الذى أتوقع حدوثـه . وقد انصرفت بالفعل ، ولكن « الزفير » نادانى :

- انتظر ياجون .. لاتذهب .. فقد تكون مفيدا

وطبعا توقفت وانتظرت .. وأخذت أخـمن كيف سأكون مفيدا .. وأية فائدة ترتجى منى فى مثل هذا الموقف .

كان « ماسكيو » جالسا فوق الرمـــــال ، وظهره

مسنود على صخرة ، ومكتوف القدمين باحكام ، كما ان يديه كانتا موثوقتين خلف ظهره ‥ ونظرات عينيه موجهة فى ذلة نحو الأرض ‥ أما وجهه فكان ناصع البياض من شدة الشحوب ‥

وكان « الزفير» واقفا قبالته وهو يحمل مصباحا خافت الضوء وينظر اليه فى احتقار شـديد ‥ وكانت تصل الى أسماعنا فى البداية أصوات وقـــع أقـدام الخيول المحملة بالبضـائع الثقيلة وهــى تـدب فوق صخور الطريق الصاعد ‥ الا ان هذه الأصوات كانت تخف بالتدريج الى أن تلاشت تماما بعد أن انحنــى الطريق تجاه البحر ‥ وحل الصمت الذى يخفـــى وراءه مايخفى ‥ وظل « الزفير » موجها نظراته نحو « ماسكيو » الذى يحاول التظاهر بانه شجاع وقـوى وقال :

– أنا موظف لخدمة القانون ‥ واذا لم تفـك قيودى وتطلق سراحى فسوف أطالب بشنقك !

كانت كلماته شجاعة فعلا ·· ولكنها شجاعة غير حقيقية لأن صوته كان ضعيفا ومرتعشا ··

وأجاب « الزفير » بثبات كما لو كان قاضيا يحاكم سجينا :

ـ لاتحدثنى عن الشنق والمشنوقين ·· انك بعد الآن لن تستطيع أن تشنق احدا ·· ولن ترى بعد الآن انسانا مشنوقا ·· لقد كنت ترقب الشمعة التى رشق فيها الدبوس فى حانة « هواى نوت » ·· وانتظرت حتى اوشك الدبوس على السقوط وضربت ضـــربتك واخذت الحانة منى وطردتنى من بيتى ·· وسوف ترقب فى هذا الصباح شمعة أخرى فيها دبوس مرشوق ·· وعندما يسقط هذا الدبوس فسوف أصوب مسدســـك هذا نحو راسك ·· واقتلك كما لو كنت اتخلـــص من وحش كاسر !

وامسك « الزفير » بشمعة ، ورشق فيها دبوسا على بعد بوصة من قمتها ، واوقفهـــا على الأرض امـــام

« ماسكيو » ·· والحقيقة انى بدأت أشـــعر بالخوف والاضطراب ·· فانا لا احب « ماسكيو » ·· ولـــو سالونى منذ ساعة فسوف أصـــيح باعلى صـــوتى : اقتلوه ·· اطلقوا عليه النار ! ·· ولكنى الآن أصلى من اجله واتمنى لو انه يتمكن من الفرار والافلات من هذا المصير التعس ·

وبدأت الشعاعات الأولى من نور الصباح تتسلل الى صفحة السماء من جهة الشرق ·· واختفت النجوم تماما ·· ولم يظهر من الألوان غير اللون الرمـــادى الذى ساد على كل شىء ·· فالســماء رمـــادية ·· والصخور رمادية ·· والأشجار رمادية ·· اما اكثر الاشياء رمادية فقد كان وجه «ماسكيو» الذى تبلدت ملامحه وظهرت خطوط داكنة تحت عينيـــه ، وتجمدت بعض قطرات من الدم على جانب من وجهه اذ يبدو انه جرح اثناء القبض عليه ·

وظل « ماسكيو » مرخيا نظره الى الأرض ·· ثم رفع عينيه وصوبهما نحوى بنظرات متوسلة ·· نظرات

تدل على العجز والاستسلام ·· تماما مثـــل نظرات حيوان موشك على الذبح ·· وحتى تلك اللحظة ، لم اكن ارى فى « ماسكيو » اية ملامح من ابنته «جريس» ·· كما لم اكن ارى فى الابنة اية ملامح من ابيها ·· ولكن فى تلك اللحظة بالذات أحسست كأن « جريس » نفسها تنظر الى بعيون ابيها ·· وزاد هذا الاحساس من اضطرابى وجعلنى لا ارغب فى مشاهدة ماسوف يحدث ولا استطيع أن اتحمله ··

وساعد الهواء على سرعة ذوبان الشـــمعة ·· واخذت الشعلة تقترب من المكـــان الذى رشـــق فيه الدبوس ·· واخذت النهاية تقترب هى الأخـــرى مع ذوبان الشمعة ·· وكان « ماسكيو » مركزا نظرات عينيه الآن وهو يشعر بأن حياته تذوبمعذوبانالشمعة قطرة قطرة ·· واخيرا بدأ « ماسكيو » يتكلم بصوت مستعطف لايدعى الشجاعة :

ــ ارجوك لاتقتلنى يامستر « الزفير بلوك » ·· ان لدى ابنة وحيدة ليس لها عائل سواى ·· فهل تحرم

هذه الابنة من أبيها وهو الشخص الوحيد الذى يرعاها ويحميها ؟ ·· انظر الى حـال تلك المســكينة حين يحملون اليها جثة أبيها غارقة فى الدماء ·· !

ورد « الزفير » على هذا الاستعطاف قائلا :

ـ وأنا أيضا كان لى ابن وحيد ·· وقد حملوا الى جثته غارقة فى الدماء ·· فمن ذا الذى قتله ؟ ·· وبأى مسدس قتل ؟ ·· ألا تعـرف ؟! ·· انه نفس المسدس الذى سأستعمله الآن فى قصف حياتك ·· هيا أقم صلاتك وتقرب الى الله ·· لم يعد أمامك سوى وقت قصير تؤدى فيه صلواتك ··

وانحنى « الزفير » ·· والتقط المسدس الملقـى على الأرض وأعده للضرب ·· وادار ظهره «لماسكيو » وأخذ يتمشى أمامه جيئة وذهابا ·· وكان من الواضح أن كلمات الاستعطاف التى قالها « ماسكيو » قد جعلت « الزفير » أكثر غضبا ·· لأنها ذكرته بمقتل ابنـه « دافيد » ·· ولكن هذه الكلمات نفسها لمست شـغاف

قلبى ·· وشجعتنى على أن أتقدم الى «الزفير» وأرجوه أن يصرف النظر عن قتل هذا الرجـــل ·· وتركنـــى « الزفير » حتى أكملت كلامى ثم قال :

ـ ان لك قلبا طيبا يابنى ·· وهذا ماجعلنى أحبك ·· ربما كنت مصرا على قتل « ماسكيو » لأنى كنت غاضبا عليه ·· ولكنى الآن فى موقف حرج للغاية ·· ولا أتصور كيف أقدم على قتل رجـــل مكتوف اليدين والقدمين ومستسلم على هذا النحو ، حتى ولو كان هذا الرجل قد قتل عشرين من ابنائى ·· ولكنك تعلم أن الرجال قد تركوه لانتقم منه بنفســــــى ·· وكانوا سيقومون بقتله بانفسهم لولا تدخلـــى ·· والآن اذا أطلقت سراحه وتركته الى حال سبيله فسوف يقوم هو بشنق الرجال جميعا ·· هل يرضيك هذا ؟ ·· ليس أمامى سوى أن اقتله !

وبالرغم من ذلك ، فقد واصلت رجائى « لالزفير » وانا امسك ذراعه بين يدى واستعطفه لكى ينقذ حياة

« ماسكيو » .. ولكن يبدو أن كل هذا الرجاء كان بلا جدوى ..

أما « ماسكيو » فقد ظلت نظراته مشتتة بين الشمعة وبين أطراف قرص الشمس التى بدأت فى الظهور من ناحية الشرق .. وبدأ رأس الدبوس يتحرك ببطء مع القطرات الذائبة التى اخذت تهبط به رويدا رويدا .. لقد حانت اذن لحظة النهاية وأخذ « ماسكيو » يبكى مستعطفا لانقاذ حياته .. عرض الف جنيه .. ثم خمسة آلاف .. ثم عشرة آلاف كفدية لانقاذ حياته .. ووعد باعادة حانة « هواى نوت » الى « الزفير » .. بل وعرض أن يغادر « مون فليت » بصفة نهائية ولن يعود اليها أبدا .. وكانت الدموع تنهمر من عينيه وتسيل على خديه مع كل كلمة كان يقولها ..

ولم يستجب « الزفير » الى أى عرض من تلك العروض ، ولم يلن قلبه امام كل هذا الاستعطاف .. بل امسك بالمسدس وجهزه لاطلاق النار .. فاغلقت عينى ووضعت اصابعى داخل اذنى حتى لا اسمع ولا

أرى ماسوف يحدث عندما يسقط الدبوس تمـــاما عن جسم الشمعة ·· وبعد لحظة فتحت احدى عينى ورأيت الدبوس وهو يسقط على الأرض ·· ورأيت « الزفير » وهو يصوب فوهة المسدس الى رأس « ماسكيو » ·· وفى لمح البصر انقضضت على « الزفير » لأمنعه من القتل ·· واشتبكت معه وأنا أحاول ابعاد المسدس من يده ·· وفى هذه الاثناء انطلق المســـدس بطريقة لا اعرفها ، وذوى صوت الطلقة فى أرجاء الشاطىء ·· وعندئذ توقف الاشتباك ونظرنا ناحية « ماسكيو » ·· فلاحظت أن شيئا من السرور قد غمر ملامح وجهه ·· وانه يتجه بنظرات عينيه الى اعلى قمة الطريق الصاعد · لعله كان يشكر السماء على تدخلها لانقاذه فى آخر لحظة !

***

ولكن الذى حدث كان شيئا مختلفـــا تماما ·· فبمجرد أن دوى صوت طلقة المســدس ·· ســـمعنا أصوات العديد من الرجال الذين كانوا ينادون بعضهم

بعضا ٠٠ ونظرنا نحو قمة الطريق الصاعد فرأينا نحو عشرين جنديا من جنود الملك يحاصـــروننا من فوق القمة ويصوبون أسلحتهم نحونا ٠٠

لقد فهمنا الآن ماحدث بالضـــبط ٠٠ فقد اتفــق « ماسكيو » مع هؤلاء الجنود على أن يهاجمونا عندما يعطيهم اشارة من مسدسه ٠٠ وكانت الخطة أن يقبض هولاء الجنود على جميع الرجال الذين اشتركوا فى عملية تهريب البضائع اثناء قيامهم بالتهريب من البحر الى البر ٠٠ ولكن نظرا لأن العملية قد تمت فى وقت مبكر بسبب وصول السفينة قبل موعدهـــا فان الوقت المتفق عليه بين « ماسكيو » والجنود لبدء الهجوم قد تأخر بنحو ساعتين بعد اتمام عملية التهريب ٠٠

نظر « الزفير » نحو الجنود ٠٠ وصاح قائدهم :

ــ استسلموا ٠٠ اننا نقبض عليكم باسم الملك ٠٠

وقال « الزفير » :

ـ لقد ضعنا ·· انهم جنود الملك فعلا ·· ولكن قبل أن نموت ، فلا بد أن يموت هذا الرجل قبلنا ··!

وتقدم الى « ماسكيو » ليضربه على رأسه بمؤخرة المسدس ·· وهنا صاح « ماسكيو » في الجنود مناديا :

ـ الحقونى ·· اقتلوهم قبل أن يقتلونى !!

وقبل أن يصل « الزفير » الى « ماسكيو » ليضربه ، دوى صوت الرصاص ·· وهوى « ماسكيو » على الأرض وقد استقرت رصاصة فى رأسه بين عينيه تماما ·· !!

وصاح « الزفير » :

ـ بسرعة ياجون ·· اهرب ناحية اليسار ·· والزم جانب الصخور لتستتر بها ·· انهم لن يستطيعوا اصابتنا فى تلك المنطقة ·· هيا بسرعة ·· !

فجريت ·· وجرى « الزفير » خلفى ·· ولكنى سقطت على ركبتى فجأة ·· ووجدت نفسى غير قادر

على الحركة ‥ وشعرت بالم شديد فى قدمى اليسرى ‥ وقال « الزفير » ملتاعا :

ـ هل أصابوك انت أيضا ‥ ؟!

وتقدم نحوى ‥ وحملنى بين ذراعيه ‥ ودوت طلقات الرصاص من حولنا ‥ وطاشت جميـــع هذه الطلقات واحدة بعد أخرى لأننا كنـــا محتمين خلف الصخرة ‥ !

***

الفصل الثانى عشر

تسلق الطريق الخطر

لقد اصبحنا آمنين الى حد ما من طلقات الرصاص
.. ولكن الى اى مدى يمكن ان يستمر هذا الأمان ؟ !
.. ان الجنود سيهبطون من قمة الراس الى أرض
لشـــاطىء ويمكن عندئذ قتلنا او القبض علينا بكل
سهولة .. وليس معنا اى سلاح يمكن ان ندافع به عن
نفسنا سوى مسدس خال من الرصاص .. وسألنى
« الزفير » :

ـ الا يمكنك ان تقف على قدميك ياجون ؟! .. هل
صبيت عظام قدمك .. ؟ !

قال ذلك وهو يمسك بقدمى اليسرى وحركها حركة بسيطة جدا ، ولكنها كانت كافية لأن تشعرنى بالم فظيع لايطاق ·· فقلت وانا احاول تحمل الألم :

ـ لا استطيع الوقوف ·· واشـــعر بأن الدماء تسيل داخل حذائى ·· !

وقال « الزفير » :

ـ اننا لا نستطيع ان نعالج قدمك هنـــا ، وليس أمامنا سوى أن نربطها بقطعة من القماش بصفة مؤقتة حتى نخــــرج من هذا الكمين ·· فليس امامنا سوى اقـا من خمس عشرة دقيقة يكون الجنود قد هبطوا خلالها من قمة الــــرأس حتى أرض الشـــاطىء ·· وعندئذ سيقبضون علينا أحياء ويشنقوننا فى «دور شستر» ··!

***

وبالرغم من معاناتى شدة الألم فى قـــدمى ·· تصورت كم سأكون ســعيدا لو أنـــى الآن راقد على

سريرى فى حانة « هوراى نوت » أو حتى جالسا بلا عمل فى بيت خالتى .. واحس « الزفير » بما اعانيه وقال :

ـ لا تفقد الأمل ياجون .. مازالت امامنا فرصة وحيدة يمكن أن تنقذ حياتنا . ولكنها فرصة صعبة .. بل وفى غاية الصعوبة .. انى اعرف أن هناك طريقا ضيقا جدا يؤدى الى قمة « راس هور » وهو طريق وعر جدا وخطر ومن المؤكد أن الجنود لايعرفون وجوده .. وحتى اذا كانوا يعرفونه فلن يستطيعوا المجازفة بالسير فيه فى حين ان لديهم الطريق المعتاد الهابط من القمة الى أرض الشاطىء .. أما هذا الطريق الوعر الذى احدثك عنه فلا اعتقد أن أحدا استخدمه من قبل فى الصعود الى قمة الراس أو فى الهبوط الى أرض الشاطىء .. وهو الفرصة الوحيدة لنجاتنا .. وأرجو أن تبعد الخوف عن قلبك .. وأن تكون على استعداد لتحمل المخاطرة فى تسلق هذا الطريق الضيق الخطر حتى نصل الى قمة « راس هور» فى نفس الوقت الذى يكون الجنودقدهبطوافيه

الى أرض الشاطىء ·· وبذلك ننجو بحياتنا من هذا الكمين ·· وسوف أحملك فوق ظهرى واتسلق بك ·· وعندما نصل الى بعض الأماكن الضيقة جداً والأكثر وعورة والتى لاتسمح باجتيازهـــا وانا أحملك على ظهرى ، فعليك فى هذه الحالة أن تجتازها بمساعدتى وانت تزحف على يديك وركبتيك ·· فهـــل أنت على استعداد ياجون لتتحمل هذه المجازفة ·· ؟!

فقلت بلا تردد :

ـ طبعا ياعزيزى « الزفير » ·· وعلينا الآن فورا ان نخاطر بتسلق هذا الطريق الوعـــر ·· وحتى لو سقطنا من أعلى تلك الصخور المدببة فسوف يكون ذلك أفضل بكثير من الوقوع فىايدى الجنود والموت شنقا فى نهاية الأمر ·· !

وهممت بالوقوف على قدمى ظنا منى انى استطيع السير ببطء وبقدم تعرج ·· ولكنى سقطت فورا على الأرض وانا أصرخ من شدة الألم ·· فحملنى « الزفير » بين ذراعيه واتجه نحو بداية الطريق الضيق الصاعد

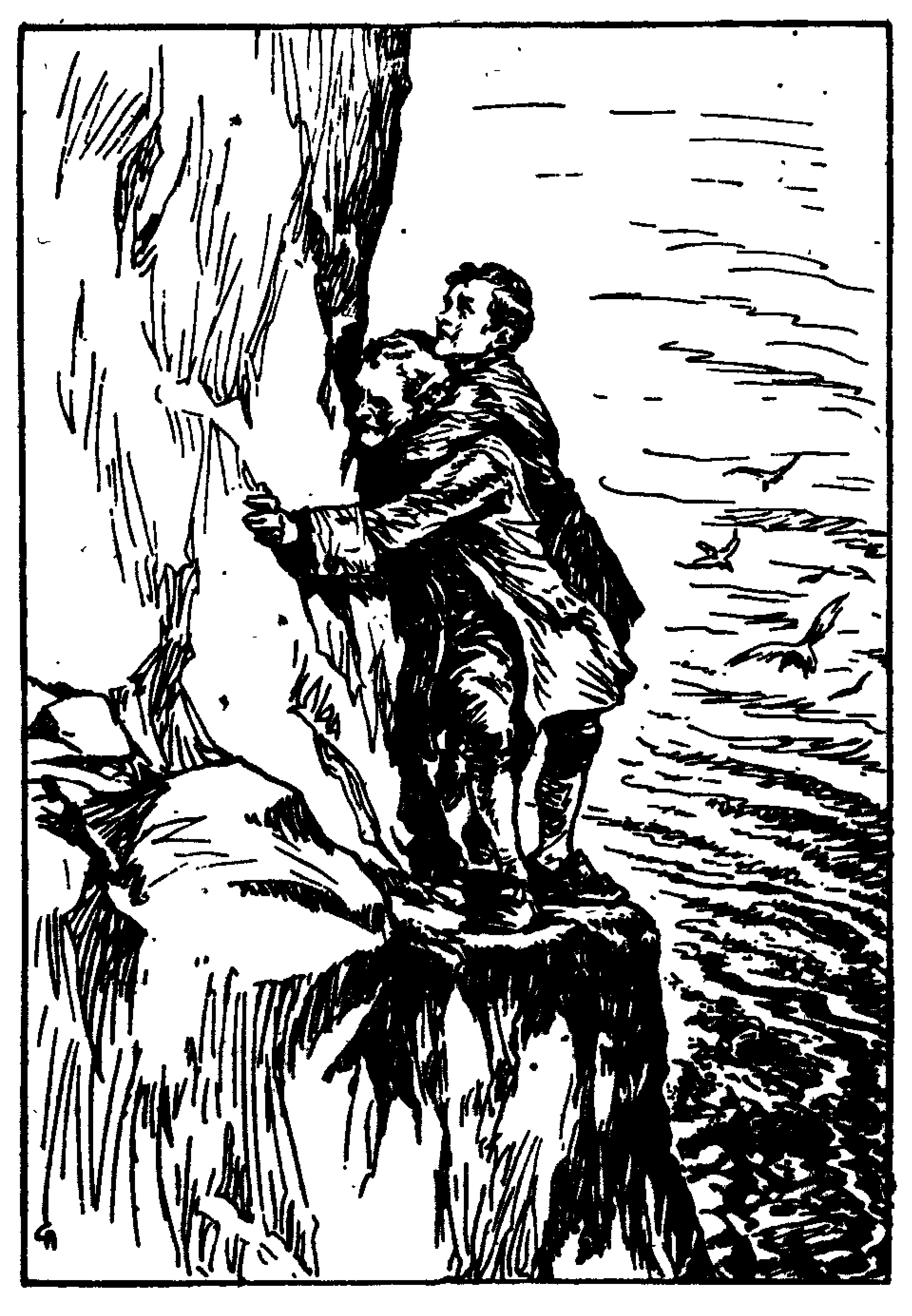
الى أعلى بميل شديد .. ومن هناك ألقيت آخر نظرة على « ماسكيو » الراقد ميتـــا ووجهه متجـــه نحو السماء ..

وضعنى « الزفير » على الأرض ليستعد الى حملى فوق ظهره بطريقة مريحة قبل الشروع فى الصـــعود وتسلق هذا الطريق المرعب الخطر .. وفى اثناء ذلك نظرت الى أعلى وفحصت جزءا من هذا الطريق الذى يجب علينا ان نتسلقه فاصبت بالذعر وبخـوف جمد اطرافى .. فقد كان الطريق ضيقا جدا ومائلا الى أعلى بطريقة حادة تجعل من الصعب على المرء أن يجتازها دون أن يسقط فى البحر ، وتسللت الى أنفى رائحـــة نتنة .. ورأيت بقايا بقرة كانت قد سقطت من أعلـى القمة .. ومن شدة احساسى بالرعـــب ، اقتنعت بأن البقاء هنا والاستسلام للجنود قد يكون أفضل كثيرا من النجاة بعد اجتياز مخاطـــر تســـلق هذا الطريق المستحيل .. ولذلك فقد رجوت « الزفير » أن يسرع هو بالهرب وأن يتركنى لمصيرى هنـــا .. فقال « الزفير » مشجعا :

ـ هيا ياجون ·· ليس هناك وقت للتراجـــع أو لتغيير خطتنا ·· ماهى الا خمس عشرة دقيقة ونصل الى القمة سالمين ·· وعندئذ سيكون أمـــام الجنود ساعة كاملة حتى يصعدوا الى قمة « راس هور » مرة اخرى ليعاودوا مطاردتنا ·· وعندما يعثر الجنود على جثة « ماسكيو » سيقضون وقتـــا للبحث فى الأمر ، ومعنى هذا أننا سنكسب وقتا إضافيا··هيا ياجون·· دعنى احملك على ظهرى ·· وأغلق عينيك حتى لاترى أى منظر يخيفك ·· ولاتفتح عينيك الا اذا طلبت منك ذلك ·· !

وحملنى « الزفير » فوق ظهره ·· واغمضت عينى كما أمرنى ·· وبدأت أشعر بوقع خطواته البطيئة وهو يصعد هذا الطريق الضيق الوعر ·· وكان من الواضح أن « الزفير » كان يتحسس موضع قدميه وهو يتقدم خطوة خطوة ·

وبالرغم من انى كنت مغمضا عينى ، لا أرى شيئا ·· فقد احسست باننا تسلقنا مرحلة لا بأس بها ··



تسلق الطريق الخطر ..

وارتفعنا الى منطقة هبوب الهواء البـارد ٠٠ كمـــا احسست بأن خطوات « الزفير » اصبحت اكثر صعوبة وتثاقلا ٠٠ وتكلم « الزفير » اخيرا :

ــ جون ٠٠ سوف اتوقف من الســـير الآن ٠٠ وسوف اضعك على الأرض بعد أن أنزلك من فوق ظهرى ٠٠ واحتفظ بعينيك مغلقتين ولاتفتحهما الآن ٠٠ ان الطريق أصبح ضيقا جدا ووعرا جدا فى هذه المنطقة ٠٠ ولايسمح بأن أمر وانا احملك فوق ظهرى ٠٠ وعليك الآن أن تزحــف على يديــك وركبتيك حتى نتمكن من اجتياز تلك المنطقة الضيقة ٠٠ ويمكنك أن تفتح عينيك وانت تزحف ٠٠ ولكن ركز نظراتك على جانب الصخرة ولا تنظر الى أسفل اطلاقا ٠٠ !

وعندما فتحت عينى وجــدت أن عرض الطريــق لايزيد على قدم واحد وهى مسافة تجعل من الصعب ان لم يكن من المستحيل أن يعبرها الانسان زحفا على قدميه ٠٠ ولكن ليس امامى سوى أن ازحف وازحف ٠٠

بالرغم من الألم الفظيع الذى كنت أعانيه وأنا أجـر قدمى المصابة ·· وقال « الزفير » مشجعا :

ـ هيا ياجون ·· أسرع قليلا ·· لم يبق سوى ان تزحف خطوة أو خطوتين ···ويمكننـــى بعد ذلك ان احملك فوق ظهرى مرة أخرى ·· هيا أسرع وكن حذرا ·· !

وأخيرا ·· اتسع الطريق قليلا ونجحنا فى اجتياز المنطقة الوعرة الخطرة ·· وتقدم « الزفير » وحملنى فوق ظهره ·· وواصل التسلق نحو القمة ·· ولكنى فتحت عينى فجأة ونظرت الى أسفل ورأيت منظرا مرعبا يثير الهلع ·· كانت مياه البحر الزرقاء تبدو بعيـدة جدا من هذا الارتفاع ·· وكانت طيــور البحر تحلق تحتنا وكان الممر ضيقا وشديد الوعورة ، وأية زلـــة قدم معناها نهايتنا ·· وتذكرت مصير البقرة المسكينة التى سقطت من أعلى · فندت عنى صرخة رعب وهلع ·· فانزلنى « الزفير » من فوق ظهره ورقدت على أرض الممر الضيقة والخوف يملأ قلبى ·· وقال « الزفير » :

ـ تشجع ياجون ‥ الم اطلـب منك أن تغلـق عينيك ولاتفتحهما الا اذا سمحت لك بذلك ؟! ‥ لقد تسلقنا لمدة عشر دقائق كاملة ، ولم يبق امامنا سوى خمس دقائق أخرى ونصل الى نهاية هذا الطريق ‥ هيا أغلق عينيك مرة أخرى ‥ ولاتفعل شيئا سوى أن تعد الأرقام ‥ واحد ‥ اثنين ‥ ثلاثة ‥ وهكذا حتى ننتهى من اجتياز المسافة الباقية ‥

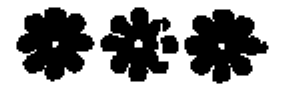
قلت يائسا :

ـ لا استطيع يا « الزفير » ‥ لا استطيع ‥ !

فنظر « الزفير » الى أسفل نحو أرض الشاطىء وقال :

ـ هاهـم الجنود وقد هبطـوا أخيرا الى أرض الشاطىء ‥ لقد عثروا على « ماسكيو » ‥ واذا بقينا هنا لمدة دقيقة أخرى فسوف يكون فى استطاعة الجنود أن يرونا ونحن فى هذا المكان ‥ أما اذا تقدمنا قليلا فان الطريق ينحنى ولن يتمكن الجنود من رؤيتنا ‥ هيا ياجون ‥ تشجع !

ان العقل البشرى شىء غريب ·· فالخوف الأكبر والأخطر يتغلب على الخوف الأصغر والأقل خطورة ·· وتلاشت كل مخاوفى من اجتياز بقية الطريق الوعر ·· المرتفعة كل هذا الارتفاع الهائل ·· والتى تحيط بها الأخطار من كل جانب ·· وواصلت الزحف على يدى وركبتى ·· و « الرفير » يساعدنى ويشجعنى ·· وبعد خمس دقائق من العذاب·· وصلنا الى قمة الطريق·· وارتمينا على الأرض نلتقط انفاسنا ·· !



الفصل الثالث عشر

الكهـــف

مازلنا فى الصباح المبكر ، ولكن قرص الشمس اخذ يصعد الى السماء ويتلألأ نوره فوق مياه البحر ·· ورقدنا على الاعشاب لنستريح قليلا بعد تســـلق هذا الطريق الوعر المخيف ·· وبعد دقائق هب « الزفير » واقفا وقال :

ـ هيا ياجون ·· فمازالت امامنا مهمة صعبـــة اخرى ·· ان علينا أن نعتنى بقدمك الجريحة ونعالجها ·· وعلينا أن نغادر هذا المكان بالرغم من أن الجنود لو صعدوا الى قمة « رأس هور » مرة اخرى ، فلن

يخطر ببالهم أننا فى هذا المكان الآمن البعيد عن الطريق الصاعد العادى ·· ولابد ان نتحرك الآن لنجد مخبأ نختبىء فيه حتى نعالج قدمــــك ·· وأنا أعرف مكانا جيدا وآمنا اسمه «كهف جوزيف » وهو يبعد نحو سبعة أميال من هنا ·· وقد تستغرق الرحلة النهار كله ·· لأنى مضطر الى السير ببطء وأنا احملك ··

وحملنى « الزفير » بين ذراعيه ·· وبدأ الســـير مخترقا مساحة من الحقول الواسعة ·· وكان الألم فى قدمى يشتد كل لحظة ·· وأخذت حرارة الشمس تشتد هى الأخرى ·· وبدأت خطوات « الزفير » تتباطأ وتصبح ثقيلة ·· الى أن وصلنا الى بقايا حائط مهدم ، وهناك وضعنى « الزفير » فوقه ·· وارتمى على الأرض وأعلن انه متعب وأصبح لايستطيع مواصلة السير ·· وطلب منى أن أظل مستيقظا وأراقب المكان ·· واستغرق هو فى النوم خلال دقائق ··

وكان الهواء يهب لطيفا دافئا ونحن محتمين بظل بقايا الحائط ·· وبدأت أقاوم النعاس ·· ولكنى فشلت

.. وبالرغم من انى مكلف بالحراسة ومن الواجب أن اظل مستيقظا ، الا أن النوم غلبنى فى النهاية ..

ولا أدرى كم مر من الوقت .. ولكنى استيقظت مفزوعا على صوت طلقـــة دوت فى مكـــان قريب .. وعاودنى الألم الشديد فى قدمى بعد أن سكن قليلا اثناء نومى .. وتحركت لأوقظ « الزفير » ولكنى وجدتـــه مستيقظا ووضع أصبعه امام فمه اشارة لى بأن اسكت والزم الصمت دون حركة .. وزحف هو خلف الحائط واختبأ وراء شجرة حتى يستطلع الأمر دون أن يراه أحد .. وبعد فترة وجيزة عاد واخبرنى :

ـ انه ولد صغير يصطاد الطيور ببندقية .. وعلينا ألا نتحرك الا اذا جاء الصبى نحونا .. !

وبعد نحو دقيقة من المراقبة قال « الزفير » :

ـ هاهو الصبى قادم نحونا .. لابـــد أن نريــه أنفسنا ..

وهب « الزفير » واقفا ، ورآه الصبى ، وخاف الصبى وبدأ يجرى ·· فنادى عليه :

ـ هاه أيها الصبى ·· ماذا تعمل هنا ·· ؟!

وتوقف الصبى عن الجرى وأجاب :

ـ انى أصيد الطيور للفلاح « توب » ··

وسأله « الزفير » :

ـ هل لديك بارود كاف ·· هل يمكنك أن تعطينى بعض البارود لأنى أريد أن أصيد أرنبا بريا من أجل عشائى ·· ولكن ليس معى بارود لأحشو به مسدسى ·· !

وأجاب الغلام :

ـ نعم لدى قليل من البارود ·· ولكنى احتاجه لصيد الطيور ·· والا سأتعرض للضرب ·· !

فقال « الزفير » :

ـ لا عليك أيهاالصبى ·· اعطنى بعض البارود وسوف أعطيك قطعة كبيرة من النقود ··

واخرج « الزفير » من جيبه قطعة كبيرة من النقود ووضعها بين اصابعه ليغرى بهاالصبى الذى لمعت عيناه حين رأى النقود التى يمكنه أن يحصل عليها ·· ولذلك فقد قال « الزفير » على الفور :

ـ أعطنى كل ما معك من بارود وسوف أعطيك قطعتين من هذه النقود ··

وبكل سهوله اعطى الصبى كل مامعه من البارود الى « الزفير » ·· وأخذ الصبى نقوده ·· وأراد « الزفير » أن يكمل الصفقة فقال للصبي :

ـ بعنى البندقية أيضا ··

وهنا رفض الصبى هذا العرض وقال :

ـ لا ·· أن الناس يقولون لن هناك بعض المهربين

قد هربوا فى هذه المنطقة ، وأن جنود الملك يبحثون عنهم للقبض عليهم ..

فقال « الزفير » دون تردد :

ـ ولهذا السبب بالذات اريد ان اشترى منك البندقية لأدافع بها عن نفسى ضد الهربين الذين لايمكن ان يلحقوا بك أذى لأنك صبى صغير ولاتهمهم فى شىء .. وسوف اعطيك قطعة ذهبية .. هاهى !

واخرج « الزفير » من جيبه قطعة ذهبية واعطاها للصبى الذى أعطاه البندقية وانصرف .

***

لا أدرى ما الذى جعلنى لا أثق فى هذا الصبى .. وظللت أراقبه بعد أن انصرف .. ولاحظت انه كان يسير متمهلا فى البداية ثم سرعان ما أطلق ساقيه للريح وأخذ يجرى .. وأخبرت « الزفير » بما أفكر فيه ، وقلت له انى أشك فى أن هذا الصبى سيذهب

ليخبر الجنود بأنـــه رأى المهربين ويعرف مكانهم ..
فقال « الزفير » :

ـ علينا فى هذه الحالة أن نختفى من هنا فورا وعلينا أن نسير بأقصى سرعة .. وعلى اية حال فان الكهف الذى نقصده قريب من هنا .. وعلى مسافة بسيطة .. هيا ياجون .. !

وحملنى « الزفير » مرة أخرى .. وانطلق مسرعا ولكن بحذر .. وظل محتميا ببقايـــا الحائط الى أن عبرنا منطقة الحقول ووصلنا الى أرض واسعة يغطيها العشب وبجوارها تل منخفض يبدو انه كان محجرا فى الماضى حيث يظهر جانبه وعليه الآثـــار التى تركتها الأحجار المقطوعة .. وعند سفح هذا التل كانت هناك بعض البيوت الصغيرة الخالية التى تركها الحجارون الذين كانوا يعيشون فى هذه المنطقة منذ زمن مضى ..

ولاحظت أن هناك ثقبا عميقا فى الأرض ، تؤدى اليه بضع درجات مقطوعة فى الحجر .. وبداخل هذا الثقب لايوجد شىء سوى ظلام دامس ..

وضعنى « الزفير » على الأرض جوار مدخل الثقب وقال وهو يشرح لى الموقف :

ـ هاهو « كهف جوزيف » الذى حدثتك عنه ·· وهنا سوف نختبىء الى أن تشفى قدمك تماما ·· ولن يستطيع أحد أن يعثر علينا هنـــا ·· ان هذا الثقــب يؤدى الى ممر طويل متعرج محفور بداخل التل ·· وفى نهاية هذا الممر يوجد كهف واسع وله مخـــرج على البحر ·· وفى هذا الكهف ســنعيش الى أن تشـــفى قدمك ··

واسترحنا لدقائق قليلة ثم حملنى « الزفير » بين ذراعيه وبدأ يهبط بعض الدرجات داخل الثقب ، ثــم بدأنا نسير فى سرداب ضيق ذى صخور مدببة على جانبيه وفى السقف المنخفض فوق رؤوســنا ·· ولكن كان من الواضح أن « الزفير » يعرف المكان جيداً ، الى أن وصلنا فى النهاية الى الكهف المنشـــود ·· وهو كهف كبير وواسع يتسرب اليه ضوء النهار خلال فتحة بعيدة ·· ويهب بداخله هواء بارد ومنعش ومتجدد ·· ولهذا فقد عرفت أن البحر ليس بعيدا عن هذا الكهف ··

الفصل الرابع عشر

الشــقاء ..

وبعد أن أعد لى « الزفير » فراشا من الرمــل الجاف .. ارقدنى عليه وهو يقول :

ـ انه ليس سريرا مريحا .. ولكن من المؤكد أن هناك أماكن أخرى للنوم أسوأ منه بكثير .. وعلى أية حال فان من اللازم والضروى أن ترقد هنا لمدة شــهر أو ربما شهرين حتى يلتئم الجـــرح فى قدمك وتعود اليك عافيتك تماما .. !

ولكن بينما كان « الزفير » يتكلم .. كنت أشعر

بألم شديد يكاد يحطم راسى ‥ وطلبت ان أشرب بعض الماء ‥ فاحضر لى « الزفير » بعض الماء فى قبعته ، وشربت وانا اشعر بان راسى تدور وتدور ‥ ولــم أشعر بما حدث بعد ذلك واصبت بغيبوبة كاملة استمرت عدة أيام ‥ اخبرنى « الزفير » بعد ذلك انى كنت افز من غيبوبتى تلك واصرخ واهذى ‥ ولكنه كان يقوم بتهدئتى ويحرص على راحتى ‥ ولكان لايترك الكهف اطلاقا الا اذا اضطر لاحضار بعض الطعام ‥

وبعد ان خفت عنى وطـأة المـرض وبدأت اتماثل للشفاء ‥ اصبحت نحيفا وفى غاية الضعف ‥ ولم اعد افعل شيئا سوى الرقاد على الفراش الرملــى لا افكر فى شىء ولا ازعج نفسى بالاهتمام باى شىء ‥ وآكل كل مايقدم الى من طعام ‥

ولم يكن هناك احد يعرف سر وجودنا بهذا الكهف سوى « راتسى » الذى كان يحمل الينا الطعام بين حين وآخر ويخبرنا بآخر اخبار مايحدث فى « مون فليت » ‥ وقال لنا ان الجنود مازالوا يبحثون عنا فى

مكان ·· وأنهم كـانوا يظنون فى البّدايـــة اننا قد سقطنا فى البحر ·· وقد قال الجنود ذلك حين احضروا جثة « ماسكيو» الى بيته ·· ولكن هذا الوضع تغير بعد أن أخبرهم صبى صغير انه راى واحدا من المهربين ومعه صبى مصاب فى قدمه ·· وأن هذا المهرب خطف منه بندقيته وباروده ·· ولهذا فقد أعلن قائد الجنود عن مكافأة قدرها خمسون جنيهـــا لـــمن يقبض على « الزفير بلوك » ·· ومكافأة أخرى قدرهـا عشـــرون جنيها لمن يقبض على الصبى « جون ترنشارد » ··

وهكذا مرت الأيام ··

وبدأت استعيد صحتى وعافيتى ·· وبدأ « الزفير» يتحدث عما سوف نفعله بعد أن نغادر الكهف ·· وقال ان علينا أن نذهب الى « نيو بورت » ومن هذا الميناء نركب سفينة المهربين « بون أدفننشر » ونذهب بها الى فرنسا ·· ونختبىء هناك الى أن يكـــف الجنود عن البحث عنا ··

وفى احدى الأمسيات العاصفة ، كان « الزفير » قد ذهب الى بلدة «بول» القريبة بعد ان علم ان السفينة « بوَن أدفنشرَ » ستكون موجودة هنـاك ، وليتفق مع بحارتها على الموعد المناسب لرحلتنا ··

كنت اجلس خارج الكهف لكى أطـــل على البحر الصاخب الذى كانت أمواجه العاتية تتلاطم بعنف فوق صخور الشاطىء ·· وخيل الى انى رايت منظرا غريبا ·· خيل الى انى أرى « ماسكيو » راقدا على الأرض مكتوف اليدين والقدمين ومع ذلك فقد كان يضحك لى ·· او يضحك على ·· لا أدرى ··

قمت ودخلت الى الكهف وأشعلت شـــمعة وفتحت العلبة الفضية التى عثرت عليها فى تابوت ذى اللحية السوداء ·· واخرجت الورقة الصغيرة ذات الكتابـة الغامضة ·· وأخذت أقراها مرة اخرى :

قدَ يعيش الرجل ثمانينَ عاما ··

يمشى قدما قدما تحت سيل الدموع ··

فاشرب من بئر السعادة ··

لأن الموت سيأتى حتما ··

من جهة الشمال أو الجنوب ··

« جون موهون »

وفجأة سمعت حركة فى الممر الموصل الى الكهف ·· وسمعت وقع خطوات لشخص قادم ·· انه ليس « الزفير » لأن « الزفير » لن يعود من مشواره قبل عدة ساعات فمن ياترى يكون القادم ؟! ·· أطفأت الشمعة ·· وامسكت بالبندقية التى كانت موضوعة الى جانبى ، وصحت فى الظلام :

ـ من القادم هناك ؟!

توقفت الخطوات ولكن أحدا لم يرد ·· فكررت الصياح مرة اخرى وبصوت اعلى :

ـ من القادم هناك ·· أجب والا فسوف اطلق النار ·· !!

وهنا اجاب القادم :

ـ أنا « راتسى » ايها المجنون الصغير ‥ هل ستطلق النار على أعز صديق لك ‥ وبالبندقية التى أحضرها اليك ‥ ؟!

وهكذا أنزلت البندقية ، وأعدت اشعال الشمعة ‥ ورأيت « راتسى » أمامى ‥ !

كانت ملابسه مبتلة بسبب الأمطار الغزيرة التى هطلت عليه فى الطريق الى هنا ‥ ولكنه كان مسرورا برؤيتى وقال وهو يمسك يدى :

ـ جون ‥ ان ماحدث لك طوال الشهرين الماضيين قد حولك من صبى الى رجل ‥ لقد كنت مجرد صبى صغير حين خرجت معنا فى عملية « رأس هور » ‥ لم يكن من الصواب أن تخرج معنا فى ذلك الصباح ‥ ان مثل هذه الأعمال لاتناسب صبيا فى مثل سنك ‥

وبالرغم من اقتناعى بصحة كلامه الا أننى قلـــت بصدق :

ـ لا يا « راتسى » ·· أينما يذهب « الزفيـر » سأذهب معه ·· وأينما يبقى سأبقى ··

وجلست فوق فراشى الرملى ·· وبدأت العاصفة تشتد فى الخارج ·· وتسلل الهواء الى داخل الكهف فأطفأ الشمعة ·· وصاح « راتسى » :

ـ ياللها من ليلة عاصفة بـاردة ·· كان الله فى عوننا ·· فقلت مؤيدا :

ـ نعم ·· وكان الله فى عون البحارة والرجـــال الذين يعملون فى السفن التى تجـــوب البحر فى تلك العاصفة ··

وقال « راتسى » :

ـ حقا ·· ومن المحتمل أننا سنجد بعض القوارب والسفن الصغيرة محطمة على شاطىء « مون فليت »

صباح اليوم التالي بعد هدوء العاصفة .. دعنا نشعل بعض النار .. !

واشعلنا النار فى بعض الأخشاب وفروع الشجر .. واحسسنا بالدفء .. **وقال « راتسى » وهو يفرك يديه :**

– كنت موشكا على الموت متجمدا من شدة البرد .. كم هى جميلة تلك النار .. وكم هى مفيدة للانسان .. هل تعلم ياجون أن لى ذكريات حزينة فى هذا المكان ؟ .. فمنذ حوالى اربعين عاما .. عندما بدأت أعمل فى تهريب البضائع .. كنت جالسا فى نفس هذا المكان بداخل هذا الكهف .. وفجأة سمعت أصواتا تصرخ .. وصوت سفينة ترتطم بصخور الشاطىء عدة مرات .. وكل من كان عليها من رجال ونساء واطفال كانوا يصرخون طلبا للنجدة وانقاذهم من السفينة الغارقة .. وعندما خرجنا لنستطلع الأمر لم نستطع أن نرى شيئا بسبب شدة الظلام وشدة هطول المطر .. وفى صباح اليوم التالى علمنا أن السفينة « فلوريدا »

ـ وهى سفينة جيدة ـ قد غرقت بكل من كان عليها من رجال ونساء واطفال ··

وصمت «راتسى» قليلا بعد ان استعاد أحزان هذه الذكرى ·· وبعد فترة اخرج ورقة من جيبه واعطاها لى لكى اقرأها ·· وكانت الورقة عبارة عن اعــلان بمكافأة « ٥٠ » جنيها لمن يرشد الى مكان العثور على « الزفير بلوك » ومكافأة اخرى « ٢٠ » جنيها لمن يساعد الجنود فى العثور على « جون ترنشارد » ··

وقال « راتسى » ليطمئننى :

ـ لا أحد فى « مون فليت » يعلم شيئا عن مكان اختفائكما ·· وحتى لو علموا فلن يقبل احد أن يشى بكما ·· ولكن الجنود يراقبون كل تحركاتى ·· وأينما أذهب أراهم يتتبعون خطواتى ·· وقد يكون من الأفضل أن امتنع عن المجىء الى هذا الكهف مرة أخرى حتى لايكون هناك من يراقبنى ويعرف بالتالى سر المكان ··

وعندما أخبرت « راتسى » بأن « الزفير » قد ذهب

الى بلدة « بول » ليتفق مع بحـارة السـفينة « بون ادفنشر » على سفرنا الى فرنسا ٠٠ شعر « راتسى » بكثير من الفرح والارتياح لهذا القرار.٠٠ ولكنه بعد ذلك صمت قليلا ٠٠ ومد يديه ليدفئهما امام النار ٠٠

وقال فى صوت حزين :

– ان قلبى مملوء بالحزن ياجون ٠٠ لقد راحت الأيام السعيدة الماضية ٠٠ و « الزفير » لن يستطيع العودة الى « مون فليت » مرة ثانية ٠٠ وحانة « هواى نوت » مغلقة لأن « ماسكيو » قد مات قبـل أن يبدأ العمل فيها ٠٠ و « جريس » ابنة « ماسـكيو » بنت صغيرة ومسكينة ٠٠ نحيفة وبيضاء مثل الزهرة ٠٠ هل تعلم ياجون انها لم تصدق الرجال الذين قالوا لها انك انت و « الزفير » اشتركتما فى قتل ابيها ٠٠ بل وقالت لهؤلاء الرجـال أن « الزفير » لايمكن ان يقتل رجلا فى مثل الحالة التى كان عليها ابيهـا بعد ان امسكوه ٠٠ وحتى لو كان « الزفير » قد شرع فى قتل

ابيها انتقاما لمقتل ابنه « دافيد » فهى تعلم جيدا أن « جون ترنشارد » سيبذل كل جهده لكى يمنعه ٠٠ !

كانت هذه الكلمات التى قالها « راتسى » أعذب فى أذنى من صوت الموسيقى ٠٠ لقد جعلتنى اشعر بانى محل ثقة « جريس » وانها مازالت تذكرنى بالخير ٠٠ لذلك فقد قلت « لراتسى » انى لابد ان ارى « جريس » واخبرها بنفسى عن كل شىء مما حدث ٠٠ لابد ان اراها قبل أن أغادر انجلترا الى فرنسا ٠٠ وعندئذ نظر الى « راتسى » نظرة متسائلة وقال :

ـ حقا ان « جريس » بنت جميلة وبيضاء مثل الزهرة ٠٠ ولكنها مازالت صغيرة ٠٠ وربما ستكون خير زوجة لك عندما تصبح رجلا ٠٠ وذلك اذا قبلت هى الزواج منك !

ووضع « راتسى » بعض الاخشاب فى النار فازداد لهيبها واشتعلت ووفرت لنا مزيدا من الضوء ٠٠ وعندئذ رأيت ورقة ذى اللحية السوداء التى كنت

اقراها عندما سمعت خطوات « راتسى » حين كان قادما من الممر المؤدى الى الكهف ·· وكانت الورقة الصغيرة ملقاة الى جانب قدمى «راتسى» ·· فالتقطها وتفحصها قليلا ثم قال :

ـ ماهذه الورقة ياجون ·· انها مكتوبة بطريقة رديئة ·· وفيها بعض الكلمات مكتوبة بحروف كبيرة فى الوقـــت الذى كان يجب ان تكتب فيـــه بحروف صغيرة ·· !

واعطانى الورقة ، ونهض واقفا ثم قال :

ـ يبدو اننى لن استطيع ان انتظر « الزفير » اكثر من ذلك ·· وعندما يعود عليك ان تخبره بما قلته لك ·· وعليكما أن تسرعا بمغادرة هذا المكان فى أقرب وقت ·

وودعنى « راتسى » وانصرف ··

والتقطت الورقة الصغيرة وعاودت قراءتهـــا ·· ولاحظت بالفعل أن هناك كلمات كتبت بحروف كبيرة فى حين أن الصحيح ان تكتب بحروف صغيرة ·· كيف

لم الاحظ هذا من قبل ·· وببساطة شديدة وجدت ان الكلمات التى كتبت بالحروف الكبيرة هى :

ثمانين ·· قدما ·· تحت ·· بئر ·· جهة الشمال

لقد انكشف سر الجوهـــرة اذن ·· فمعنى هذه الكلمـــات أن الجوهرة مخبأة فى « بئر » على عمق « ثمانين قدما » ، « من جهة الشمال » ·· ولكن شـــمال ماذا ؟ !

واستغرقت فى التفكير لحل هذا اللغز الجديد ·· ودب فى عينى النعاس فنمت لفترة ·· وعندما استيقظت لاحظت ان النار مازالت مشـــتعلة ، وان « الزفير » جالس أمامها ويعد بعض الطعام ·· فقال حين رآنى مستيقظا :

ـ هذه ثانى مرة ياجون تنام فيها فى حين يجب أن تبقى مستيقظا لمراقبة المكان ·· !

اعتذرت له ·· واخبرته بأمر تلك الكلمات المكتوبة

بحروف كبيرة فى ورقة ذى اللحية السوداء ٠٠ والمعنى الذى تشير اليه تلك الكلمات ٠٠ **فقال « الزفير »** ٠٠

ـ يبدو انك محق فى هذا الظن ٠٠ ولكن ماهو البئر المقصود ؟ ٠٠ انا أعرف جميع الآبار فى « مون فليت » ٠٠ وليس بينها بئر واحد عمقه « ثمانون قدما » ٠٠ وربما يكون هذا البئر المقصود فى الورقة يقع فى منطقة خارج « مون فليت » ٠٠ ربما يكون فى قلعـــة « كاريسبروك » التى كان « جون مومون » ذو اللحية السوداء يقوم فيها بحراسة الملك السجين ٠٠ انا أعرف ان هناك بئرا بداخل تلك القلعة ٠٠ فهيا بنا نذهب الى هناك ٠٠ ان لدى اصدقاء مخلصين فى القرية المجاورة لتلك القلعة ٠٠ ويمكننا ان نختبىء عندهم فى أمان ٠٠ كما أن المنطقة التى تقع فيها هذه القرية أكثر أمنا من مكاننا هذا ٠٠ !

وهكذا قررنا أن السفينة « بون أدفنشر » ستأخذنا الى « كاريسبروك » بدلا من الابحار الى فرنسا ٠٠ وفى

اليوم التالى ، أحضر « الزفير » سائلا بنيا صبغ بـه بشرة وجهى ·· وتنكر هو بحلـــق لحيته ·· وغيرنا ملابسنا بملابس فلاح وصبيه ·· وعندما نظر كل منا الى الشخص الآخر بعد هذا التنكر الجيد ، تأكدنا أن أحدا لن يعرفنا فى هذا الزى الجديد ·· !

***

الفصل الخامس عشر

سأنتظرك حتى تعود ..

بقيت لدينا ليلتان كاملتان نقضيهما فى هذا المخبأ قبل أن نبدأ رحلتنا الى « كاريسبروك » .. كنت أخشى أن تمر هاتان الليلتان دون أن أتمكن من الذهاب الى « جريس » لرؤيتها وتوديعها .. وترددت كثيرا فى اختيار الكيفية التى أبلغ بها « الزفير » برغبتى هذه ..

وبينما كنت جالسا مع « الزفير » عند فتحة الكهف التى تطل على البحر ونرقب آخر شعاعات من نور الشمس الغاربة ، رأيت أن الوقت المناسب قد حان

لاستئذان « الزفير » ليسمح لى بهذه الزيارة · وبدأت عرض الموضوع بكلمات هادئة :

– ياعزيزى « الزفير » ·· انى أشكر لك اهتمامك بى طوال الفترة الماضية ·· لقد انقذت حياتى من موت محقق ·· وعالجت قدمى الجريحة الى أن شفيت ·· ومنذ نحو شهرين أو أكثر وأنا مـــلازم لهذا الكهف لا ابرحه ·· لا أرى فيه شيئا سوى جدرانه الصخرية ·· وأنا أريد أن اتمشى لأمرن قدمى على حسن الســـير بطريقة طبيعية ·· أريد أن أمشى فوق أرض عشبية ··

قال « الزفير » :

– لا تقل انى انقذت حياتك ·· انى على العكس اشعر بانى السبب فى كل ما تتعرض له الآن من متاعب واخطار ·· ولو لم افعل ذلك لكنت الآن راقدا فـــوق سريرك النظيف فى « مون فليت » بدلا من رقادك على فراش رملى على ارض الكهف الصخرية ·· انى ذاهب الليلة الى بيت يقع فى مكان قريب من هنـــا ·· لأن

« راتسى » قد ترك لنا شيئا فى ذلك البيت •• فتعال معى فى هذا المشوار •• لنتمشى ونتمتع بنســمات الليل •• !

فقلت بلا تردد :

ـ لا يا « الزفير » •• انى اريد أن اذهب ابعد من ذلك •• انت تعلم انى ولدت فى « مون فليت » •• وعشت فيها طوال حياتى •• واحببت فيها كل شىء •• اشجارها •• ونهرها •• وكل حجر فيها •• وانا أريد ان القى آخر نظرة على« مون فليت» قبلانأغادرهاالى الأبد •• وارجو ان تسمح لى بأن اقوم بهذه الزيارة وسوف أعود اليك فى الليلة التالية ••

نظر « الزفير » نحوى دون أن يتكلم •• وكنت على يقين من أنه يعرف نواياى وما أقصده من زيارة « مون فليت » •• لذلك فقد خفضت نظرى الى الأرض •• وبعد فترة قصيرة تكلم « الزفير » دون غضب :

ـ جون •• انى أعرف أن الرجال قد يعرضــون

أنفسهم للمخاطر لأسباب مختلفة ٠٠ فى سبيل الذهب مثلا ٠٠ أو فى سبيل الحب ٠٠ أو بغرض الانتقام ٠٠ ولكنى لا أعرف حتى الآن رجالا يعرضون أنفسهم للمخاطر لكى يروا شجرة ٠٠ أو نهرا ٠٠ أو حجرا ٠٠ ان الناس عندما يقولون انهم يحبون مكانا معينا أو قرية أو مدينة معينة فانهم لايقصدون انهم يحبون هذا المكان أو تلك القرية كأشياء جامدة ٠٠ ولكنهم يحبون شخصا معينا يعيش هناك ٠٠ ولا أعتقد أن هذا الشخص هو خالتك « مس آرنولد » ٠٠ فهل تريد أن تذهب الى « مون فليت » لكى تراها ٠٠ ؟!

وطبعا ٠٠ حكيت له كل شىء بصدق ٠٠ واندهشت كثيرا عندما قال « الزفير » :

ـ أعرف أن هذه الفتاة الصغيرة جميلة وذات قلب طيب ٠٠ وكان أبوها « ماسكيو » لا يستحقها ٠٠ ومع ذلك فانا سعيد الآن لأنى لم أكن قاتله ٠٠ اذهب ياجون وتمتع برؤية النهر والأشجار والأحجار كما تقول ٠٠ وسوف أصاحبك فى بعض الطريق الى هناك ٠٠ وسوف

انتظرك فى الكهف حتى تعود فى الليلة القادمة ·· واذا لم تحضر حتى منتصف الليل ، فسوف أعرف أنهم قبضوا عليك ·· وسوف أحضر لمساعدتك بكل وسيلة ·

وصافحته بحرارة وشكرت له موقفه ··

وهكذا بدأنا رحلتنا بعد أن حل الظلام ·· وأخذنا معنا خبزا وبعض اللحم ليكون طعاما لى اثناء الرحلة الى « مون فليت » والعودة ·· وعندما كنا نجتاز الممر الضيق كان «الزفير» يرشدنى ويأخذ بيدى خطوةخطوة الى أن خرجنا الى الأرض البراح الواسعة ·· وكانت السماء صافية تسطع فيها النجوم ·· وتهب علينا نسمات المساء الرقيقة الندية ··

وواصلنا السير فى صمت متمتعين بجمال الليل حتى وصلنا الى البيت الذى ترك فيه « راتسى » شيئا « لالزفير » ·· ثم صاحبنى « الزفير » حتى وصلنا الى منطقة « باربيك » ·· وهناك توقف « الزفير » عن السير ، وقال وهو يعطينى المسدس الذى كان مملوكا من قبل « لماسكيو » :

ـ خذ هذا المسدس ياجون ·· ولاتستعمله الا اذا واجهت خطرا جسيما لايمكن أن تتجنبه بطريقة اخرى ·· واذا اضطررت الى استخدامه فاطلـق النار على الاجزاء السفلى من جسم عدوك ·· !

***

وعندما بدأت الشمس تطل على السماء من افق الشرق معلنة تباشير الصباح ·· كنت قد وصلت الى التل الذى يطل على « مون فليت » كلها ·· ومن هذا التل رأيت كل بيوت القرية ·· ورأيت حانة « هواى نوت » ·· ورأيت النهر والبحر ·· وكانت هذه المناظر كلها تسعدنى وتحزننى فى نفس الوقت ··

وعندما اشتدت حرارة الشمس ·· واصلت السير الى غابة « مانور » وذهبت مباشرة الى مكانى المعتاد الذى كنت أجلس فيه فى الماضى لأرى كل شىء ببيت « ماسكيو » دون أن يرانى أحد ·· وحيث كنت أرقب « جريس » حين كانت تخرج الى الحديقة ·· وهناك

جلست وتناولت قطعـــة من الخبز وانا أراقب باب البيت ·· واخذت أفكر ·· هل أذهب واقرع جرس الباب ·· أو ربما يكون هناك أحد يتعرف على ويكتشـــف أمرى ·· والحقيقة انه بالرغم من تنكرى فى ثيـــاب الفلاحين التى أرتديها الا انى كنت أخاف بالفعل من مقابلة أى شخص لاينطلى عليه هذا التنكر ·· وعلى اية حال ، فقد عزمت أمرى ·· ومشيت فى الطريق المؤدى الى باب البيت ··

وقرعت جرس الباب ··

وسمعت وقع خطوات هينة رقيقة تتقدم نحو الباب من الداخل ·· ثم سمعت صوت « جريس » العـــذب الجميل :

ـ من هناك ·· ؟ !

وكدت أصيح قائلا : انا جون ترنشارد ياجريس ·· ولكنى تذكرت أن من المحتمل أن يكون معها أحد فى البيت فيعرفنـــى ·· لذلك فقد قلت وانا اغير نبـرات صوتى :

ـ انا صبى مسكين ·· تهت فى الطريق ولا أعرف أين أنا ·· !

وعندئذ فتحت « جريس » الباب مواربا وسألتنى عن الجهة التى كنت اقصدها ·· ونظرت الى دون أن يبدو عليها أنها تعرفنى ·· فواصلت كلامى بنفس الطريقة :

ـ انى صبى فلاح ·· جئت سيرا على قدمى من بلدة « باربيك » قاصدا حانة اسمها « هواى نوت » يديرها شخص اسمه « الزفير بلوك » ·· !

وعندما سمعت « جريس » هذا الكلام اندهشت ·· ونظرت الى مرة اخرى ولكنها لم تعرفنى ·· وقالت اخيرا :

ـ اذا صعدت معى هذه الدرجات القليلة ، أستطيع أن أريك موقع هذه الحانة ·· ولكن يبدو انك لاتعرف ان حانة « هواى نوت » مغلقة منذ أكثر من شهرين ·· وان « الزفير » قد غادر القرية ··

وخرجت « جريس » من الباب ·· وسارت عـدة خطوات ، ثم صعدت بضع درجـــات وانا اتبعها ·· وعندما اصبحنا وحدنا فى هذا المكان البعيد قليلا عن باب البيت ·· قلت لها بصوت منخفض :

- جريس ·· انا جون ترنشارد ·· جئت متخفيا حتى اراك قبل ان اغادر « مون فليت » ·· ولـــدى اشياء كثيرة اريد ان اخبرك بها ·· هل هناك احد فى البيت غيرك ·· ؟!

كان من المتوقع ان اية فتاة يمكن ان تصرخ اذا واجهت مثل هذا الموقف ·· ولكن « جريس » لم تفعل ·· بل قالت بهدوء :

- هيا نعود الى البيت ·· انا هناك وحدى !

ودخلنا الى البيت ، وما ان اغلقنا الباب من خلفنا حتى وضع كل منا يديه بيدى الآخر ··وجلسنامتقابلين ينظر كل منا الى عينى الآخر ·· كانت لحظات سـعيدة

حلوة تبدو كما لو كانت حلما جميلا فى منام مريح ..
وقالت « جريس » اخيرا :

ـ جون .. لقد كبرت .. لقد اصبحت رجلا خلال هذين الشهرين الماضيين !

ولاحظت أن « جريس » قد كبرت هى الأخرى خلال نفس الفترة بسبب الهموم والمتاعب التى اعقبت موت ابيها .. وفقد وجهها بعض البريق الساحر الأخاذ الذى كان يشع من جبينها ووجنتيها...

وضحكت « جريس » كثيرا من ملابس الفلاحين الفقراء التى كنت متنكرا فيها .. ومن الصبغة البنية التى دهنت بها بشرة وجهى ويدى ..

ثم ذهبنا الى الحديقة ، وجلسنا فى ركن وراء شجرتين ضخمتين .. وقالت « جريس » ان باستطاعتى أن أتسلق احدى هاتين الشجرتين بسهولة واقفز خارج سور البيت اذا ظهر احد او رأينا خطرا يداهمنا ..

وأخبرت « جريس » بحقيقة كل ماحدث لأبيها ٠٠ وكانت تبكى وانا اشرح لها التفاصـــيل ٠٠ الى أن انتهيت من الحكاية ، وجففت « جريس » دموعها ٠٠ وسألتنى عن اصابة قدمى وهل شفيت منها تماما ٠٠ فاجبتها بالايجاب ورويت لها الجهد الذى بذله «الزفير» فى علاجى ٠٠ ثم اخبرتها بامر الكلمات المكتوبة على الورقة التى عثرت عليها بداخل العلبة الفضية التى كانت مملوكة فيما مضى لذى اللحية الســوداء ٠٠ وأريتها العلبة الفضية الجميلة التى مازالت محتفظا بها ٠٠ وشرحت لها كيف اكتشفت سر الكلمات المكتوبة بالحروف الكبيرة وانى ذاهـــب للبحث عن الجوهرة الثمينة ثم أصبح من اغنى الأغنياء فى هذه البلاد ٠٠ وعندئذ قالت « جريس » :

ــ آه ياجون ٠٠ لاتفكر كثيرا فى امر تلك الجوهرة ولاتحاول الحصول عليها ٠٠ لقد كانت مملوكة لرجل سيىء ولن يكون وراءها شىء سوى التعاسة وحتى لو عثرت عليها ياجون فبعها وانفق ثمنهـا لمســاعدة الفقراء ٠٠ والا حلت بك التعاسة انت أيضا ٠٠ !

وضحكت مما قالته « جريس » ·· ولكنى لم أخبرها بانى اريد ان أكون غنيا لسبب واحد ·· هو ان أتزوجها

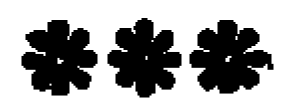
وتواصلت بيننا أحاديث طويلة طيبة ·· واحضرت لى « جريس » خبزا ولحما ساخنا وبعض الفواكه من داخل البيت ·· وطلبت منى أن استريح وأنـــام بعض الوقت بعد أن أخبرتها انى لم انم الليلة الماضية لأن الرحلة الطويلة قد استغرقت طول الليل ·· وتركتنى وعادت الى البيت ·· واستغرقت فى نوم جميل هانىء فى ذلك الركن الهادىء خلف الشجرتين ··

وعندما استيقظت ، وجدت « جريس » جالسة الى جوارى وقد احضرت معها بعض الطعام وبعض اللبن لآخذه معى فى رحلة العودة ··

كانت النسمات قد أصبحت باردة على نحو لطيف ·· وكانت الشمس قد أوشكت على المغيب وراء خط الأفق وبدأت تباشير المساء تغطى أنوار الشـــفق ·· وترخى استار الظلام رويدا رويدا ··

ووقفنا متقابلين وكل منا يمسك بيدى الآخـــر ·· تماما مثلما فعلنا حين التقينا فى الصباح ·· وقالت « جريس » بصوت جميل عذب :

ـ جون ·· عندما تتجول داخـــل البحر ·· أو عندما تكون قادما الى « مون فليت » من جهة البحر ·· وهذا ما أرجو حدوثه فى يوم ما ·· سترى شـــمعة مضاءة خلف نافذتى ·· سأحرص على اضاءتها كل ليلة حتى تعود ·· تماما كما كنت أفعل فى الماضى ·· وعندما ترى نور الشمعة فى نافذتى ·· اعرف جيدا أن « جريس » مازالت تذكرك وتنتظـــرك ·· أما اذا جئت يوما ولم تر نور الشمعة ، فاعلم ان « جريس » قد ماتت ·· !



الفصل السادس عشر

فى القلعــة ..

كان الوقت متأخــــرا حين وصــــلت الى « كهف جوزيف » لأنام فيه آخر ليلة ..

وفى الليلة التالية أرسلت الينا الســـفينة « بون أدفنشر » أحد قواربها ليأخذنا من الشاطىء حتى نصعد الى ظهرها .. وهنـــــاك رأيت مجموعة من الرجــال والبحارة أعرف الكثيرين منهم .. وتحدثوا معى بلطف وترحاب .

وبالرغم من سعادتى بوجودى بين هؤلاء الرجال

الا أن شيئا من الحزن قد ملأ قلبى ونحن نغادر ساحل « دورست » .. حيث يوجد الكهف الذى عشت فيه أكثر من شهرين ..

وفى صباح اليوم التالى انزلتنا السفينة فى بلدة « كاوز » ومن هناك واصلنا السير على الأقدام حتى قرية « كاريسبروك » .. ودخلنا الى حانة « باجل » حيث تناولنا طعاما شهيا .. ونمت على سرير جيد ونظيف سعدت به كثيرا حين تذكرت فراشى الرملى فى « كهف جوزيف » ..

واتفقت مع « الزفير » على الا أظهر كثيرا خارج حجرتى أو خارج الحانة .. ولذلك فقد كنت أقضى أغلب الوقت فى آخر ركن بالحانة وقراءة العديد من الكتب التى وجدتها هناك .. أما « الزفير » فقد كان يقضى أغلب النهار بالخارج .. وتردد على القلعة عدة مرات .. وعلم أن القلعة تستخدم الآن كسجن لأسرى الحرب من الجنود الفرنسيين .. واخبرنى انه

استطاع أن يعقد صداقة مع بعض حراس القلعة ..
وتمكن بذلك من الدخول الى القلعة ورؤية البئر ..

***

كانت هناك حديقة تقع خلف حانة « باجل » .. يمر بها مجرى مائى صغير .. وكنت افضل الجلوس فى تلك الحديقة فى فترة المساء .. وجاءنى « الزفير » حيث اجلس ، وجلس بجانبى وقال :

ـ لقد حاولت ان اضع خطة لكى نصل الى البئر وحدنا دون أن نخبر بذلك احداً .. ولكنى وجدت ان هذا الأمر مستحيل تماما .. وهناك رجل يتولى حراسة هذا البئر ، وبدون مساعدة من هذا الرجل لن نستطيع أن نفعل شيئا .. ولذلك فقد اضطررت لأن اخبره بان هناك جوهرة ثمينة مخبأة فى هذا البئر ونحن نعرف مكانها .. فوعدنى بأنه سيساعدنا فى الهبوط الى البئر للبحث عن هذه الجوهرة بشرط ان يحصل هو على ثلث قيمة الجوهرة الثمينة او اية جواهر اخرى نعثر

عليها ·· والحقيقة انى لا أثق فى هذا الرجل ولكن ليس أمامنا حل آخر ·· ولهذا فقد اتفقت معـــه على ان نقابله عند بوابة القلعة فى الساعة السادسة من صباح الغد ·· ويجب أن نكون متنكرين فى ثياب عمال بناء جاءوا ليصلحوا جدران البئر ·· وسيتولى هو أمـر دخولنا الى القلعة والى البئر ·· !

وفى الصباح الباكر غادرنا حانة « باجل » ونحن متنكرين فى الثياب المتفق عليها ·· وكانت الأمطـار الغزيرة قد ظلت تنهمر طول الليل ·· ومازالت بقاياها تنهمر أيضا فى هذا الصباح ·· وعندما وصلنا الى بوابة القلعة وجدنا من يتوقع مجيئنا ·· ففتحت لنـا البوابة ودخلنا ·· ودعانا حارس البوابة الى بعض الشراب ولكن « الزفير » شكره ولم يقبل دعوته وفضل ان يبدأ العمل فورا ··

وسار الرجل أمامنا وسرنا خلفـــه ·· وعبرنـا الساحة الرئيسية الى الجانب الآخر ·· وهناك أخرج الرجل مفتاحا كبيرا وفتح به بابا ضخما دخلنا منه الى

ساحة أخرى أقل مساحة ، وفى وسطها مبنى مربـــع الشكل مصنوع من الخشب ·· وفتح الرجل باب هذا المبنى ودخلنا جميعا وقام الرجل باغـــلاق الباب من الداخل ·· لقد وصلنا الى البئر أخيرا ··

وعندما نظرت الى الرجل لم استرح الى مـلامح وجهه ولا الى شكله العام ·· وفقدت ثقتى فيه ·· واذا كانوا يقولون ان هذه الجوهرة الثمينة تجلب التعاسة لمن يمتلكها ·· فمما لاشك فيه أن هذا الرجل سـيكون أول متاعبنا ومشاكلنا اذا عثرنا على الجوهرة ···

***

كان هناك برميل خشبى معلق ببكرة الحبال فوق البئر ، فجذب « الزفير » البرميل ناحيته وقال لى :

ـ سأنزل أنا فى هذا البرميل ·· وسيتولى هذا الرجل الطيب انزال البرميـــل ببطء ·· وعليك ياجون أن تمسك بطرف هذا الحبل فى يدك وسأمسك أنا بطرفه

الآخر فى يدى ·· ان هذا الحبل طوله ثمانون قدما بالضبط ·· وعندما يصبح هذا الحبل مشدودا بين ايدينا فعليك ان تطلب من الرجل الطيب ان يتوقف فورا عن انزال البرميل ·· !

لم اقتنع بتلك الخطة وعارضتها فورا ·· لأنها ستجعلنى وحدى مع هذا الرجل الذى لا اثق فيه اطلاقا وقد يكون من الأفضل ان انزل انا الى البئر ويبقى « الزفير » مع الرجل ·· لانه يستطيع ان يتعامل معه اذاصدرت منه اية نية سيئة · لذلك فقد قلت «لالزفير» وانا انظر اليه نظرات ذات معنى :

ـ لا ·· دعنى انزل فى البرميل لأنى صغير وخفيف الجسم ·· وابق انت هنا لمساعدة هذا الرجل الطيب ·· !

استحسن « الزفير » هذه الخطة ولكن الرجل قد استاء من هذا التغيير غير المتوقع بالنسبة له ، لذلك فقد قال « لالزفير » :

ـ ان خطتك الســـابقة افضـــل كثيرا من هذه الخطة ..

ولكن « الزفير » لم يعر أى التفـــات الى كلمات الرجل بعد أن فهم ماكنت أعنيه بنظرات عينى .. وقرر « الزفير » فى النهاية أن يبقى هو مع الرجل ، وأن انزل انا الى البئر ..

وفى الحقيقة فقد لكنت أخشى ان يـــكون الهواء فاسدا فى أعماق البئـــر ، لذلك فقد اســـتدرت نحو « الزفير وسالته :

ـ هل انت متاكد من أن البئر نظيف وأن هواءه صالح للتنفس .. ؟ !

اجاب « الزفير » :

ـ بالتاكيد .. لقد اختبرتـــه أمس .. وأدليت شمعة مشتعلة مربوطة بحبل الى قاع البئر .. وظلت الشمعة محافظة على شعلتها حتى وصلت الى سطح

الماء فى البئر ·· وأى مكان يصلح لاستمرار الشمعة مشتعلة يصلح بالطبع لتنفس الانسان ·· وعلى أيـــة حال فلكى تكون مطمئنا سنعيد التجربة أمامـــك ·· احضر لنا شمعة أيها الرجل الطيب !

واضطر الرجل الى احضار شمعة وهو مستاء ·· وثبت الشمعة فى قطعة من الخشب بعد أن أشعلها ·· وأدلاها بحبل رفيع الى أعماق البئر ·· وظلت الشمعة تنزل رويدا رويدا الى أن أصبحت مثل نقطة صغيرة من الضوء حين لامست سطح المياه ·· وعندئذ بدأ الرجل يرفع الشمعة مرة أخرى حتى أخرجها خارج البئر ·· ثم أخذ حجرا صغيرا وألقـــاه فى البئر ·· واصطدم الحجر عدة مرات بجوانب البئر اثناء سقوطه ·· ثم دوى بصوت عميق مكتوم حين غاص الحجر فى مياه البئر ·· ونظر الرجل الى وكانه يقول لى فى سره: هكذا سنسمع صوتك وانت تسقط فى هذا البئر ·· !!

وتقدم « الزفير » ووضع يده فوق كتفى وسألنى :

ـ هل انت متأكد يابني من انك قادر على النزول الى هذا البئر ؟! ٠٠ انى مستعد أن افقد كل مجوهرات العالم ولا افقدك أنت !

فاجبته بكل ثقة :

ـ نعم ٠٠ انى قادر على النزول ولا أخاف ٠ !

***

الفصل السابع عشر

النزول الى البئر ..

وبدأ البرميل ينـزل بى الى أسـفل البئر رويدا رويدا .. وكلمـا نزلت الى أسـفل خـف الضـوء وأظلمت جدران البئر .. وعندما نظرت الى أعلى وجدت فوهة البئر عبارة عن دائرة من الضوء تبدو مثـل القمر ..

واستمر النزول بطيئا الى أن وصلت الى نهايـة الحبل الذى ادلاه « الزفير » من اعلى والذى يبلغ طوله ثمانين قدما بالضبط ، وعندئذ صـحت بالرجلين ان

يتوقفا عن انزال الحبل الذى يحمل البرميل · وتوقف الهبوط فورا ··

كانت جدران البئر مبنية باحجار مربعة متماثله فى الشكل ، وأخذت أفحصها حجرا حجرا ولكنى وجدتها كلها متشابهة ولايوجد بينها أى حجـــر مميز بأيـــة علامة ·· وسمعت صوت الرجل الحارس وهو يصيح بى متسائلا :

ـ هاه ·· هل وجدت شيئا ·· ؟! هل ترى المكان جيدا ·· ؟ !

فصحت قائلا :

ـ لا ·· لم أجد شيئا ·· يا « الزفير » ·· هل انت متأكد من أن حبلك طوله ثمانون قدما بالضبط ··؟!

وسمعت الرجلين يتحدثان مع بعضهما ولكنى لم اسمع شيئا مما كانا يقولاه ·· وأخيرا صــاح بـــى « الزفير » :

ـ جون ٠٠ يقولون ان الأرض قد ارتفعت قليلا فيهذه المنطقة بمرور الزمن ٠٠ وعليك ان تبحث في مكان أكثر عمقا من المكان الذى تقف فيه الآن ٠٠ وسوف ننزل بالبرميل قليلا فانظر جيدا ٠٠

واخذ البرميل ينزل بى مرة أخرى ولكن ببطء شديد اتاح لى أن افحص جميع الأحجار بدقة شديدة ٠٠ وفجأة لاحظت وجود علامة صغيرة على شكل حرف « Y » وهو الشعار الذى كانت تتخذه عائلة « المومون» ٠٠ اذن فالجوهرة الثمينة مخبأة خلف هذا الحجر ٠٠ لقد وصلت اليها اخيرا ٠٠ وطلبت من الرجلين أن يتوقفا عن انزال البرميل ٠٠ وأن يحركا البرميل قليلا ناحية الجانب الآخر من البئر ٠٠

وأخذت احفر حول الحجر محاولا زحزحته من مكانه ٠٠ وسمعت مرة اخرى صوت الحارس وهو يصيح :

ـ ماذا تعمل الآن ؟ ٠٠ هل وجدت شيئا ؟ ٠٠ هل وجدت شيئا ٠٠ ؟ !

وتضايقت هذه المرة من صوت هذا الحارس ‥ لماذا يصيح متلهفا هكذا ‥ بينما ظل « الزفير » صامتا طول الوقت ‥ ؟ !

وتمكنت اخيرا من زحزحة الحجر وخلعته من جدار البئر ووضعته فى البرميل جوار قدمى ‥ ومددت يدى الى داخل الثقب الذى كان يشغله الحجر فعثرت على لفة صغيرة تحسستها باصابعى فاذا بداخلهـــا شىء صلب وكروى ‥ وما ان فتحت اللفـــة حتى وجدت بداخلها ماسة ضخمة ‥ !!

لم اكن قد رايت فى حياتى من قبل اية قطعة من المـــاس ‥ لا صـــغيرة ولا كبيرة ‥ ومع ذلك فقد احسست ان هذه الماسة التى عثرت عليها هى اجمل الماسات فى العالم ‥ كان ينعكس عليها ضوء الشمعة التى كنت احملها فى يدى الأخرى فيخرج منها على الفور بريق من آلاف الألوان البديعة المبهرة ‥ ولـــم استطع أن ابعد عينى عن جمالها وبريقها ‥ ومـــر بذهنى سيل الذكريات والأحلام التى كنت اصور نفسى

فيها سعيدا متمتعا بالغنى والثراء .. والعـودة الى « مون فليت » .. وحبى « لجريس » ..

وافقت على صياح الحارس من جديد :

ـ ماذا تعمل الآن ؟ .. هل وجدت شيئا .. ؟ !

وصحت بالرجلين أعلى البئر :

ـ نعم .. لقد وجدت الجوهرة .. ارفعانى الآن الى أعلى .. !!

وأخذ البرميل يرتفع بسرعة .. وظلت الأحـــلام تراودنى اثناء الصعود .. وتذكرت صوت « جريس » العذب الجميل وهى تقول : كــن حـــذرا .. ان هذه الجوهرة قد تجلب لك التعاسة !

وعندما أصبحت قريبا من فوهـــة البئر ، توقف الحارس عن جذب الحبل وأصبحت معلقا .. واندهشت لأنه كان من المفروض أن يظل يسحب الحبل الى أن أخرج سالما من البئر وأعود مرة ثانية الى الأرض .. ولكنى لاحظت أن الحارس مد يده الى وقال :

ـ أين الجوهرة ·· أين الجوهــرة ·· اعطنى اياها ·· !!

ووضعت الماسة بين اصابعى لكى اريها «لالزفير» ··ولكن الحارس مد يده اكثر واراد أن يخطفها ·· ولاحظت فى عينيه شيئا ذكرنى بحكاية عــلاء الدين ومصباحه السحرى ·· وتذكرت أن علاء الدين رفض أن يعطى المصباح للساحر قبل أن يخرجـــه من داخـــل الكهف ·· لقد كان علاء الدين يخشى أن يحصل الساحر على المصباح ثم يغلق عليه باب الكهف ويصبح مدفونا تحت الأرض ·· وعاود الحارس صياحه مرة اخرى :

ـ اعطنى الجوهرة ·· !

فاجبته بكل ثقه :

ـ اخرجنى أولا من البئر واعطيك الجوهرة ··

فقال الحارس ببجاحة :

ـ لا ·· اعطنى الجوهرة أولا ·· ان ذلك اكثر



فى البئر ..

اباننا .. فربما تسقط الجوهرة من يدك اثناء خروجك من حافة فوهة البئر .. !

ثم صاح مرة اخرى بصوت اكثر غضبا :

ـ قلت لك اعطنى الجوهرة .. هاتها !!

وهنا تدخل « الزفير » الذى لم يقبل ان يحدثنى الحارس بهذه الطريقة .. فقال له :

ـ ارفعة أولا خارج البئر .. ان الجوهـرة ملك لهذا الصبى ، وسوف نعطيك حقك الذى اتفقنا عليه وهو ثلث قيمة الجوهرة بعد ان نبيعها ..

قال الحارس بطريقة شرسة :

ـ ان الجوهرة ليست ملكا له .. ولا ملكا لك انت ايضا .. انها ملكى انا .. لأن البئر بئرى انا .. وقد سمحت لكما بالنزول الى البئر لاحضار الجوهرة .. وسوف أقوم انا ببيعها وساعطيك نصف قيمتها .. اما هذا الصبى فساعطيه قطعة نقود ذهبية كمكافأة له .. وهذا يكفى !

وقال « الزغير » :

ـ لا تكن غبيا ·· ان الجوهرة ملك للصبى ·· وسوف يحصل على حقه كاملا ··

وقال الحارس بسرعة :

ـ انا لست غبيا بل انت الغبى ·· ان اسمك هو « الزغير بلوك » وهناك مكافأة قدرها خمسون جنيها لمن يقبض عليك ·· ومكافأة أخرى قدرها عشرون جنيها لمن يقبض على هذا الصبى ·· وانتما الآن فى قبضة يدى ويمكننى أن احبسكما داخل هذا المبنى الخشبى واسلمكما الى الجنود ·· فهل انا الغبى أم أنت ·· انى لن أدعكما تخرجان من هنا الا اذا أخذت الجوهرة ·· !

وعندما تبينت هذا الموقف الغريب من جانب الحارس ، خبأت الجوهرة داخل ملابسى ·· وقررت أن أبذل كل جهدى فى الدفاع عنها بكل طريقة ممكنة ··

ونظرت الى أعلى ولاحظت ان الحارس قد أخرج مسدسه من جيبه •• فصحت على « الزفير » محذرا :

ـ احترس يا « الزفير » •• احترس !

وفى تلك اللحظة صوب الحارس مسدسه نحو « الزفير » وقال مهددا :

ـ اياك ان تتحرك •• انى اقبض عليك الآن •• واذا صدرت منك أية حركة فسأطلق عليك النار وأرديك قتيلا واحصل على الخمسين جنيها ••

وفجأة أطلق الحارس النار صوب « الزفير » الذى كان يقف على الجانب المقابل من حافة البئر •• وكان من المتوقع أن « الزفير » قد أصيب بالطلقة التى أطلقت عليه من تلك المسافة القريبة •• ولكن الطلقة طاشت وضربت الحافة العليا للبئر ولم يصب « الزفير » بشىء •• وعندئذ ألقى الحارس مسدسه الفارغ من الرصاص واندفع نحو « الزمير » فى هجوم وحشى •• وأمسك رقبة « الزفير » بين يديه ••

كان الحارس أكثر شبابا ، ولكن « الزفير » كان أكثر قوة ‥ ونشبت بين الرجلين معركة شرسة ‥

وبذلت كل جهدى حتى صعدت خارجا من البئر لكى أساعد « الزفير » فى معركته ضد الحارس ‥ ولكنى ما أن وقفت الى جانب حافة البئر حتى وجدت «الزفير» فى غير حاجة الى مساعدتى ‥ كان قد تغلب على الحارس واوشك أن يلقى به على الأرض ‥ وكانت ذراعا الحارس تحيطان بجسم « الزفير » ‥ ولكنه رفعهما ومدهما ليمسك برقبة «الزفير» مرة اخرى وفى تلك اللحظة ألقاه « الزفير » على الأرض بقوة ‥ وقام الحارس بسرعة وتراجع عدة خطوات الى الخلف ليعاود هجومه مرة أخرى ‥ فاذا به ينزلق على المياه التى كانت تحيط بحافة البئر ، فسقط على الأرض وقدماه مرفوعتان الى أعلى ورأسه متجه الى أسفل وسقط فى فوهة البئر ‥ وفى لمح البصر مددت يدى لكى أمنعه من السقوط ، الا أن يدى لم تمسك آلا بسلسلة المفاتيح التى كانت معلقة في حزام حول

وسطه ‥ وسقط الحارس فى فوهة البئـــر وأحدث سقوطه صوتا مرعبا وهو يتخابط فى جدران البئر ثم دوى الصوت مرة اخرى حين سقط فى مياه البئر ‥ وتلا ذلك صمت تام ‥

أسرع « الزفير » نحو البرميل ، ودخل الى فوهة البئر وهو يقول :

ـ هيا ياجون ‥ انزلنى بسرعة ‥ سأحاول أن انقذه ‥ !

وأدليت البرميل بسرعة الى أسفل البئر ‥ وأخذت انصت باهتمام لأعرف النتيجة ‥ واخيرا طلب منى « الزفير » أن أرفع البرميل الى أعلى ‥ وعندما خرج من البئر لزم الصمت وعرفت بذلك أن الحـــارس قد مات !

وقلت متحسرا :

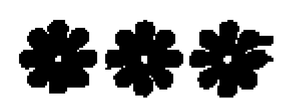
ـ دعنا نلقى هذه الجوهرة فى البئر يا «الزفير» انها لن تجلب لنا سوى التعاسة والموت !

فقال « الزفير » : .

ـ لا ·· اعطنى الجوهرة لاحتفظ بها من أجلك ·· انا لا أريد شيئا منها ولا أرغب فى الحصول من ورائها على أى كسب ·· أريد فقط أن امنعك من القائها فى البئر !

وهكذا أعطيت الجوهرة « لالزفير » ··

وعدنا بسلام الى حانة « باجـــل » ·· وجمعنا حاجياتنا بسرعة ·· واعتذرنا لصاحب الحـــانة بأن عملا ما جعلنا نرحل بسرعة ·· واتجهنا الى الميناء القريب من الحانة ·· وركبنا سفينة هولانديـة كانت على وشك الرحيل فورا الى هولاندا ·· !



الفصل الثامن عشر

ضياع الجوهرة ..

وأنزلتنا السفينة فى ميناء « لاهاى » بهولاندا .. وتعتبر هذه المدينة أفضل مكان فى العالم لتجارة الماس .. وكان « الزفير » يعرف بعض اللغة الهولاندية وذهبنا على الفور لنبحث عن تاجر ماس مناسب يمكن أن نبيعه جوهرتنا ..

وعلمنا أن « الدوبراند » هو أغنى تجار الماس وأكثرهم شهرة ..

وقبل غروب الشمس بنحو ساعة ، ذهبنا الى بيت هذا التاجر .. وكان بيتا غير مرتفع ، يطل على الطريق

الرئيسى ، وجدرانه مطلية باللون الأبيض بينما طليت نوافذه باللون الأخضر ·· وكانت هناك حديقة واسعة ملحقة بخلف البيت ·· وقرعنا جرس الباب ، ففتح لنا خادم طويل الجسم فاخبرناه باننا نريد أن نبيع جوهرة ··

دعانا الخادم الى الدخول ·· وذهب ليخبر سيده بهذا الأمر ·· وبعد عدة دقائق جاء التاجر «الدوبراند» لقابلتنا ·· وكان ضئيل الجسم ويبلغ عمره نحو سبعين سنة ·· وقال لنا بصوت هادىء :

ـ ماذا يا ابنائى ·· لقد سمعت أن لديكما جوهرة تريدان بيعها ·· أنا لا أتعامل فى الجواهر العادية ·· فلا تريانى اياها الا اذا كانت تستحق ··

فى تلك اللحظة كنت امسك بالجوهرة بيدى ، فقدمتها اليه ·· ورأيت ملامح الدهشة تبدو واضحة فى وجهه حين أمسك بالجوهرة ورأى حجمها ·· وامسك التاجر بالجوهرة بين أصابعه ليفحصها عن

قرب ·· وتغيرت نبرات صـــوته وهو يقـول لنا هذه المرة :

ـ لايوجد هنا ضوء كاف ·· تعاليا معى ·· !

وتبعناه الي غرفة اخرى ·· ومن نافذة هذه الغرفة تظهر الحديقة الملحقة بالبيت وقد غمرتهـــا الأشــعة الحمراء للشمس الغاربة ·· وجلس « ألدوبراند » الى مائدة فى وســـط الغرفة ، وامسك الماسة بين اطراف اصابعه وعرضها للضوء واخذ يتفحصـــها بكل عناية واهتمام ·· ولم استرح لهذا الرجل الذى التفت الى فجاة وسالنى :

ـ ما اسمك أيها الصبى ·· ومن اين جئت ·· ؟!

وفوجئت بالسؤال فاجبته بغباء :

ـ اسمى جون ترنشـــارد ·· وجئت من مـــون فليت ··

وزغدنى « الزفير » ليحذرنى ولكن الوقت كان قد فات ولم ينفع هذا التحذير ·· ولشدة دهشتى لاحظت

ان التاجر قد دون اسمى فى دفتر كان موضوعا على المائدة ·

وقد تبدو كتابة اسمى فى هذا الدفتر كشىء طبيعى ومتوقع بالنسبة لأى تاجر مجوهرات ·· ولكنى لا أدرى لماذا اغضبنى هذا التصرف ·· بالرغم من ان الأحداث قد اثبتت فيما بعد ان قيام هذا التاجر بكتابة اسمى وموطنى فى دفتره كان اهم شىء حدث فى حياتـــى كلها ·· !

ونظر الى التاجر بعد ان كتب ماكتب وقال :

ـ هاه ·· من « مون فليت » ·· ولكن قل لى كيف حصلت على هذه الجوهرة ·· ؟ !

أجاب « الزفير » على هذا السؤال بسرعة :

ـ اننا لم نحضر الى هنا لنجيب على أسئلتك ·· بل لنعرف اذا كنت ترغب في شراء هذه الجوهرة أم لا ·· وماهو الثمن الذى يمكنك أن تدفعه ·· ويكفى

ان تعرف اننا بحـــارة انجليز ·· وان هذه الجوهرة ملكنا ·· واننا نريد بيعها ·· !

قال التاجر العجوز :

ـ نعم نعم ·· أعرف ذلك ·· ولكن لأنى لا أعرف المصدر الحقيقى لهذه الجوهرة ·· فان من اللازم ان افحصها جيدا حتى اتأكد من انها جوهـــرة حقيقيـة وليست مزيفة ··

ثم احضر زجاجة صغيرة بها سائل اخضر ، ووضــع نقطة منه فوق الجوهرة ، ثم حكها فى حجر اسود ·· وكنت أرقب ملامح وجهه وهو يقوم بهذا الفحــص ·· ولكنى وجــدت وجهه جـــامدا وكأنه قد من حجر ·· واخيرا صدمنا بقوله :

ـ جون ·· يابنى ·· هذه الجوهرة ليست ماسة حقيقية ·· انها مصنوعة من الزجـــاج ·· ولكنهـا مصنوعة جيدا وبدقة شديدة ·· وهى مع ذلك احسن قطعة من الزجاج رايتها فى حياتى ·· ولكنها ليســت من الماس !

اظلمت الدنيا فى عينى وكدت أسقط على الأرض مغشيا على ·· لقد تبددت فى لحظة كل احلام الثراء ·· لقد ذهبت كل جهودنا والمخـــاطر التى واجهناها ادراج الرياح ·· وحزنت حزنا لم اشعر بمثله من قبل طوال حياتى ·· **وقال التاجر العجوز مشفقا وكانـــه يواسينا :**

ـ لا ياجون ·· لا يابنى ·· لا تكن تعيسا الى هذا الحد ·· انا لم اقل انها لاتساوى شيئا ·· فبالرغم من انها مصنوعة من الزجاج ، الا انها مصنوعة بطريقة فنية جيدة ·· وسوف اعطيكما عشرة قطع من النقود الفضية ثمنا لها ·· !

وهنا قال « الزفير » غاضبا :

ـ لا ·· اننا لم نحضـــر الى هنا لنحصـــل على نقودك الفضية ·· نحن فى غنى عنها ويمكنك الاحتفاظ بها ·· !

وبغضب شديد التقط « الزفير » الجوهرة من يد

التاجر ، وقذف بها من النافـذة ٠٠ فصاح التاجـــر « الدوبراند » وهو يقفز من فوق مقعده :

ـ هل أنت مجنون أيها الرجل ؟ ! ٠٠ لماذا فعلت هذا ٠٠ لماذا ٠٠ ؟!!

***

حين ألقى « الزفير » بالجوهرة من النافـــذة ٠٠ رأيتها تطير فى الهواء ، واستقرت على أرض الحديقة جوار زهرة حمراء كبيرة ٠٠ وعندما خرجنا يائسين من بيت التاجر ، سرنا صامتين فى الشـــارع عائدين الى الحانة التى كنا نقيم فيهـــا دون أن نتبادل كلمـة واحدة ٠٠ ووصلنا الى الحانة أخيـرا ٠٠ وجلســـنا لتناول وجبة العشاء ٠٠

وبطبيعة الحال كان ذهني مشغولا بما حدث ٠٠ وأخذت أقلب الأمر من جميع جوانبه ٠٠ وفجأة توقفت عن تناول الطعام ، وقفزت واقفا وقلت :

ـ الزفير ·· اننا بلهاء ·· ان الجوهرة ماسـة حقيقيه ·· لقد استطاع التاجر أن يغشنا ولم يقل لنا الحقيقة !

نظر الى « الزفير » فى صمت للحظة وجيزة ·· ثم قال فى هدوء وحيرة :

ـ قد تكون على صـواب ياجـون ·· ولكننا القيناها من النافذة ولن نستطيع العثور عليها ··

قلت بشىء من الارتياح :

ـ ولكنى رأيتها وهى تسـقط فى الحديقة ·· وأعرف أين سقطت بالضبط !

وتساءل « الزفير » :

ـ ولكن ألا تظن أن التاجر « الدوبرائد » قد رآها وهى تسقط ويعرف مكانها ·· ؟!

وذكرنى هذا السؤال بأنى قد رأيت التاجر وقـد جحظت عيناه وهو يتتبع مسار الجوهرة حين القاها

« الزفير » من النافذة ·· ولكنى لا أدرى ما اذا كان يعرف أين سقطت بالضبط أم لا ·· ولذلك فقد قلت :

ــ لا أدرى يا « الزفير » ·· دعنا نذهب لنرى ·· أنا متأكد من أن الجوهرة قد سقطت بجوار زهرة حمراء كبيرة ذات ساق طويلة ·· هيا نذهب فسوف نجدها هناك !

وظل « الزفير » صامتا نحو دقيقة ثم قال :

ــ انا محتار فعلا ·· ولكن يبدو أنك على صواب ياجون ·· واعتقد الآن أن الجوهرة ماسة حقيقية · بل وكنت أعرف أنها ماسة حقيقية عندما ألقيتها من النافذة ·· وأنا على يقين بأننا سنعيش سعداء بدونها ·· فمنذ أن سمعنا عنها واكتشفنا سر مخبئها ونحن لم نحصل على شىء سوى التعاسة ·· وها نحن الآن بعيدين عن وطننا ·· وهناك رجلان قد قتلا ·· دع هذه الجوهرة تذهب الى حال سبيلها ·· دعها حيث هى وأينما تكون · لا داعى للبحث عنها حتى نتحاشى التعاسة التى تسببها ·· !

ولكنى لم اقتنع ·· وأصررت على الذهـــاب الى الحديقة لاستعادة الجوهرة ·· ولم يجـــد « الزفير » مناصا سوى أن يصاحبنى ويذهب معى ·· !

***

كان ظلام الليل قد حل حين كنا نتسلق الســـور الحجرى الذى يحيط بحديقة بيت التاجر « ألدوبراند » ·· وما أن اصبحنا فى أرض الحديقة حتى تقدمت الى مكان الزهرة الحمراء الكبيرة ذات الســـاق الطويلة وأخذت أتحسس الأرض بيدى ·· تحسستها قطعـــة قطعة ولكنى لم أعثر على شىء ·· وقلت « لالزفير » :

ـ لقد اختفت الجوهرة ·· لابد أن « ألدوبراند» قد سبقنا فى الوصول اليها ·· لقد أخذها هذا التاجر الغشاش !

ونظرت تجاه بيت التاجر ، فرأيت نورا مضـــاء خلف احدى النوافذ ·· فاقتربت من النافذة واقترب

معى « الزفير » ٠٠ وشاهدنا التاجر وهو جالس الى مائدة وأمامه الجوهرة الثمينة ٠٠ ماستنا التى فقدناها وحصل هو عليها دون حق ٠٠ انها اذن ماسة حقيقية ٠٠ وكان التاجر قد وضعها بجانب مجموعة أخرى من قطع الماس ٠ ٠ولكنها كانت تبدو قطعا صغيرة تافهة بجانب ماستنا العملاقة ٠٠ وطغى جمال ماستنا على جميع قطع الماس الأخرى ٠٠ وخيل الى ان ماستنا العظيمة تناديني بصوت جميل أسمعه فى أعماقى : ألست اجمل ماسات العالم ٠٠ ألست ملكة على جميع الماسات الأخرى ٠٠ ألست مملوكة لك أنت وحدك ٠٠ هيا تقدم واستعدنى من بين يدى هذا التاجر !!

ولم افق من هذا الخيال الا عندما لمسنى « الزفير » فى ذراعى وهمس فى أذنى :

ـ هيا يا « جون » ٠٠ دعنا نعود ٠٠ اننا لانريد هذه الجوهرة التى لن تجلب لنا الا التعاسة والشقاء ٠٠ هيا نعود يا « جون » ٠٠ ألا تسمعنى ٠٠ ؟ !

كنت أسمعه فعلا ولكنى لم اقتنع باية كلمة ٠٠ ولم يكن يدور فى ذهنى اى شىء سوى ضرورة استعادة

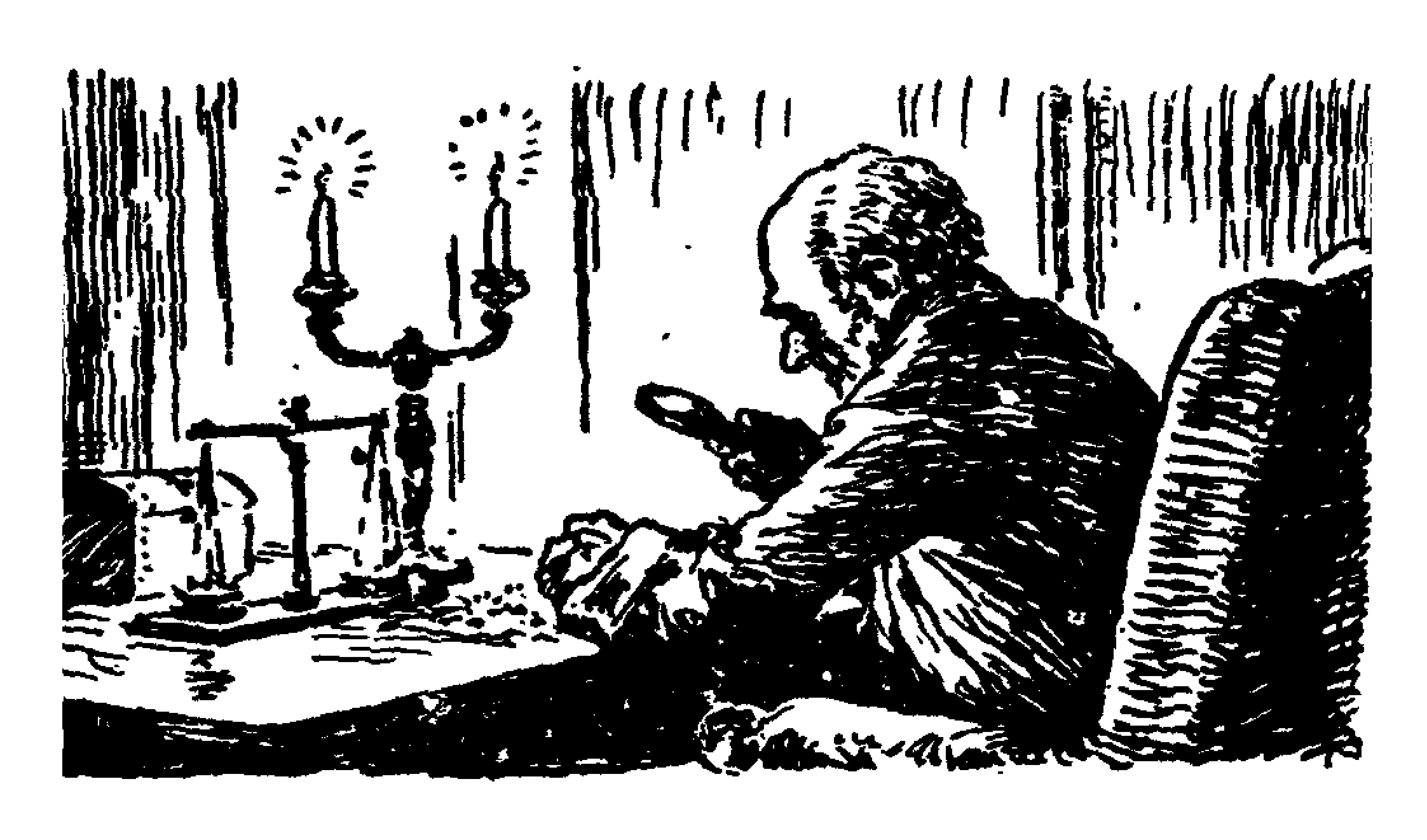
هذه المأساة .. ووجدت نفسى أصعد الى حافة النافذة بكل سرعة ، واقفز الى داخل الحجرة التى كان يجلس بها التاجر ، وتقدمت فى لمح البصر الى المائدة وامسكت الجوهرة بيدى ..

ولكن فى هذه اللحظـة بالضبط ، هب التاجـر « الدوبراند » واقفا وأخذ يصيح مذعورا :

ـ النجدة .. النجدة .. لصوص .. لصوص ..!

وفى الحال دخل ستة من الخدم .. واحاطوا بنا .. وقبضوا علينا .. !

***



وكان « ألدويراند » يفحص الجوهرة بعناية

الفصل التاسع عشر

السـجن ..

قدمونا الى المحاكمة .. وطبعا لم يصدق القاضى اية كلمة من قصتنا التى حكيناها بكل تفاصـيلها .. وحكم علينا بالسجن .. !

وبعد عدة ايام اخذونا الى سجن بعيد يسـمى « ايمجوين » .. وربطوا ايـدينا بحبـل طويـل مع سجناء آخرين .. وساروا بنا عبر طريق طويل شـاق يؤدى الى ذلك السجن ..

وبعد أن بقيت فى هذا السجن نحو اسـبوع .. جاء بعض الحراس واخذونى الى كوخ صغير .. وفى

وسط هذا الكوخ من الداخل رأيت كرسيا ضخما اجلسني الحراس عليه واوثقوني بالحبال حتى أصبحت وكأني انا وهذا الكرسي قطعة واحدة ٠٠ ولم أكن أدري حتى هذا الوقت ماسوف يفعلونه بي بعد أن كتفوني كل هذا التكتيف ٠٠

ثم أدركت ماسوف يفعلونه بي ٠٠ لقد رأيت نارا مشتعلة في هذا الكوخ القذر المملوء برائحة كريهة ٠٠ وجاءوا بختم مصنوع من الحديد المحمي بالنار ، ووسموني على جبهتي بعلامة على شكل حرف « Y » وهو أول حرف من « ايمجوين » اسم هذا السجن ٠٠ وذلك حتى يعرف الجميع اني سجين اتبع هذا السجن الرهيب ٠٠

وهكذا خرجت من هذا الكوخ المرعب ، وعلى جبهتي حرف « Y » وهو الحرف الذي كانت تتخذه عائلة « الموهون » شعارا لها ٠٠

وبعد مرور عدة أيام قابلت « الزفير » اثناء العمل

فى ساحة السجن ·· وكان يحمل هذه العلامة أيضا على جبهته ··

ومرت سنوات طويلة ··

كل يوم من الأيام كان شبيها باليوم الســابق ·· ولا تغيير اطلاقا ·· نخرج الى العمل الشاق ·· ونعود لتناول الطعام الردىء ·· ثم ننام لنحــاول أن ننسى هذا العذاب ·· !

***

الفصل العشرون

العاصفة ..

وفى يوم ما بعد انقضاء عشر سنوات فى هذا السجن أخرجنا الحراس لا لنعمل فى الأشغال الشاقة فى الأماكن المعتادة ، وانما سلمونا لمجموعة من الجنود المدججين بالسلاح ، تولوا حراستنا حتى وصلنا الى ميناء « لاهاى » .. وهناك افهمونا أننا سنركب سفينة ستأخذنا الى جزيرة « جاوه » وهى جزيرة تابعة لهولاندا وتبعد عن أوربا عدة آلاف من الأميال وتقع وراء الهند .. وأخبرونا اننا سنعمل هناك فى المزارع الهولاندية لقصب السكر .. !

وكانت هذه المصيبة الجديدة نهاية محزنة لكل آمالى ·· فلن أتمكن أبدا من رؤية « جريس » مرة اخرى ·· ولن أعود أبدا الى « مون فليت » ·· وطوال السنوات العشر الماضية لم أفقد الأمل ، وكنت أتصور أننى سأستطيع الهرب يوما ما ·· أو ربما كانوا سيطلقون سراحى بعد مدة لا أعرفها ·· ولكن الآن ضاعت كل هذه الآمال والتوقعات ·· ضاعت الى الأبد ··

وكان « الزفير » أيضا ضمن السجناء المرحلين الى جزيرة « جاوه » ·· لقد أصبح الآن رجلا عجوزا شاب شعر رأسه وابيض ·· أين هو الآن من تلك الليلة ذات الأحداث والمغامرات فى « رأس هور » ·· حيث كان أسود الشعر ومملوءا بالقوة والنشاط والجسارة ·· !

ولاحت فى خيالى أيضا تلك الأمسية البديعة التى لن انساها أبدا حين جلست مع « جريس » فى حديقة بيتها ·· استمع الى صوتها العذب الرقيق ، وهى تحثنى على عدم التفكير فى تلك الجوهرة ·· وتحذرنى

من أنها لن تحقق لى سوى الشقاء والتعاسة ·· لقد تحققت بالفعل كل كلمات « جريس » وتوقعاتها ··

***

وصلنا الى «لاهاى» ··و صعدنا الى السفينة التي ستقوم بالرحلة الى «جاوه » ·· وشعرت بشىء من السعادة حين تسللت الى أنفى رائحة نسـمات البحر مرة أخرى ·· ولكن هذه السعادة انقلبت حزنا وغما حين أقلعت السفينة بادئـة رحلتها الى تلك البـلاد البعيدة ··

أبحرت السفينة لمدة يومين فى بحر هـادىء ·· وفى اليوم الثالث هبت عاصفة ··

وكان معنا فى عنبر المسجونين عشرون سـجينا انتابهم الرعب خوفا من تلك العاصفة لأنهم لم يركبوا البحر من قبل وكانت هذه هى تجربتهم الأولى ·· أما بالنسبة لنا ـ أنا والزفير ـ فقد اعتدنا على مثل هذه العواصف ··

ولكن عندما بدأت الرياح تشتد وتهب فى عنف واخذت الأمواج تضرب السفينة من كل جانب ، قال « الزفير » :

ـ أعرف سفنا أكبر من هذه السفينة واقوى منها كان مصيرها الغرق والتحطم فى مثل هذه العاصفة العاتية ٠٠ وأنا أعتقد اننا بالقرب من أحد السواحل ٠٠ وأرجو ألا نكون قريبين من هذا الساحل حتى لاتقذف الأمواج بالسفينة وتحطمها على صخور الشاطىء ٠٠!

فى تلك اللحظة فتح باب عنبر المساجين ٠٠ ولم نر الجنود الذين كانوا يحضرون الينا الطعام كالمعتاد ٠٠ بل رأينا رجلا من بحارة السفينة قال وهو يلقى الينا بمفتاح الباب :

ـ ليساعدكم الله ٠٠ تصرفوا بسرعة ٠٠ !!

واختفى الرجل ٠٠

وفهم « الزفير » مايعنيه هذا البحار وقال لبقية السجناء :

ـ معنى هذا أن السفينة ستغرق ٠٠ وانهم يعطوننا فرصة للنجاة ٠٠ !

وقام « الزفير » بفك قيوده وقيود جميع السجناء الآخرين ٠٠

وكنت أول من خرج من العنبر الى سطح السفينة ٠٠ ولاحظت على الفور أن الجنود والبحارة قد غادروا السفينة فى قوارب النجاة ٠٠ ولم يعد باقيا فيها غيرى أنا و « الزفير » وباقى السجناء ٠

كانت العاصفة فى عنفوانها ٠٠ وأشار « الزفير » الى شىء بعيد يظهر خلال طبقات الظلام وسيول المطر المنهمر ، واقترب من أذنى وصاح بأعلى صوته :

ـ نحن قريبون من الساحل !

وأخذت الأمواج العاتية تدفعنا نحو الشـــاطىء وصخوره الضخمة ٠ وبدأت أرى تلك الأمواج وهى تتكسر على تلك الصخور محدثة أصواتا مرعبة مخيفة ٠٠ ومن الواضح أننا كنا فى أحد الخلجان ٠٠ ورأيت

تلا مرتفعا يبدو شامخا من بعيد ·· وقد ذكرنى منظره وشكله بتل أعرفه ورأيته مرارا من قبل ·

واقترب منى « الزفير » وصــاح فى أذنى ولكن بصوت مبتهج هذه المرة وينم عن الفرح :

ـ انظر ·· انظر ياجون ·· !!

ونظرت الى حيث أشار ·· وأدركت على الفور أننا فى خليج « مون فليت » ·· !!

وفى الحال تبددت كل آثـار الحــزن من وجــه « الزفير » وامتلأ قلبه بسعادة غامرة ·· وصاح فى أذنى :

ـ ان قوة خفية وغريبة أخذت بيدنا واعادتنا الى الوطن ·· خير لى ألف مرة أن أموت غريقا فى سفينة تحطمت على صخور خليج « مون فليت » من قضــاء كل عمرى سجينا محروما من الحرية ·· اسمع ياجون ·· اننا سنهلك حتما فى ظرف أقل من ساعة ·· ومع

ذلك فان علينا أن نبذل كل وسعنا فى الكفاح من اجل الحياة ٠٠ !

***

أما بقية السجناء الآخرين فقد انخلعت قلوبهم من شدة الرعب والاحساس بالخوف من الموت ٠٠ وركع بعضهم أمام « الزفير » يستجدونه فى أن يقود بهم قارب النجاة الوحيد الباقى فوق ظهر السفينة ٠ ولكن « الزفير » كان يعرف مدى خطورة النزول الى البحر الهائج فى مثل هذه العاصفة وفى مثل هذا القارب ٠٠

فصاح عاليا ليسمع الرجال صوته :

ـ يا أصدقائى ٠٠ ان النزول الى البحر الآن معناه الموت والهلاك غرقا ٠٠ انى أعرف تماما هذا الخليج ٠٠ واذا كنتم تريدون النجاة حقا فعليكم بالبقاء على ظهر السفينة ٠٠ سوف نصل الى صخور الشاطىء بعد نحو نصف ساعة من الآن ٠٠ وستتحطم السفينة

على هذه الصخور ٠٠ وعلى كل واحد منا عندئذ ان يكافح من اجل نجاته ٠٠ !

ولكن السجناء لم يقتنعوا بهذه النصيحة ، وانزلوا قارب النجاة الى البحر وركبوه وانطلقوا الى مصيرهم المحتوم ٠٠ وهكذا أصبحنا وحدنا على السفينة الموشكة على الغرق والتى تتقاذفها الأمواج العالية وتدفع بها الى الارتطام بالصخور ٠٠

واقتربنا رويدا من المنطقة الخطرة التى تتكسـر عليها امـواج البحر العاتية موجة وراء موجة حيث تتخلف عنها ملايين الفقاعات البيضاء وكأن مياه البحر تفور بالزبد ٠٠ وفى كل مرة تصـطدم فيها احـدى الأمواج العنيفة بصخور الشاطىء يدوى صوت الارتطام الرهيب فى انحاء « مون فليت » كلهـا ٠٠ وكثيرا ماكنت اسمع مثل هذا الهدير المرعب وانا راقد على سريرى مستيقظا فى بيت خالتى ٠٠ واعرف جيدا ما اعتاد اهالى « مون فليت » ان يفعلوه فى مثـل تلك

العواصف ، خصوصا عندما يشاهدون سفينة تلعب بها الأمواج قبل أن تحطمها على صخور الخليج ··

فى تلك اللحظات تخيلت تماما مايفعلـه أهـــالى « مون فليت » الآن وهم يرون سفينتنـــا موشكة على الغرق ·· تخيلت « راتسى » ومعه مجموعة من رجال القرية يحملون المصابيح ويراقبون الســـفينة والرياح تحطم صواريها وتمزق أشرعتها ·· ويشعر جميـــع الرجال بالحزن والأسى وهم يفكرون فى كيفية تقديم أية مساعدة لانقاذ الأحياء الراكبين فوق ظهر السفينة ·· وسمعت صوت « الزفير » يناديني :

ـ جون ·· انظر ·· !!

وخلال اطباق الظلام وسيول المطر ، رأيت نقطـة من الضوء تلمع مثل الجوهرة ·· وقال « الزفير » :

ـ انها « منارة ماسكيو » ·· الا تذكرها ·· ؟!

آه ·· هاهى « جريس » مازالت وفية بالعهد الذى قطعته على نفسها ·· لقد وعدتنى بأنها ستشعل شمعة

خلف نافذتها كل ليلة حتى يهتدى بها بحارة السفن العابرة الى أن أعود اليها مرة أخرى ·· انها مازالت تنتظرنى ·· وهأنذا عائد اليها الآن ·· ولايفصلنى عنها سوى هذه الأمواج البيضاء العاتية التى تحمل الموت فى طياتها ··

ولاحظت أن عدد المصابيح التى كان يحملها رجال « مون فليت » قد ازداد ·· ولاشك انهم يرقبون الآن هذه السفينة التى تتحطم قطعة قطعة فى مهب الرياح والأمواج ·· وهم لايعرفون طبعا أن هذه السفينة لاتحمل على ظهرها سوى اثنين من الرجال ·· وأن هذين الرجلين من أهالى « مون فليت » ··

وبدأت السفينة تقترب اكثر واكثر من ارض الشاطىء لتلقى نهايتها المحتومة ·· واشتد عويل الرياح وصخب الموج ·· وصاح « الزفير » :

ـ لقد اقتربت النهاية ·· وعلينا ان نلقى انفسنا

الى البحر مع قدوم الموجة التالية ·· والآن ·· هاهى موجة قاسمة ·· اقفز ياجون ·· اقفز معى ·· !

وقفزنا ·· !

وسقطت على يدى وركبتى فى منطقة لايزيد عمقها على متر واحد ·· ووقفت على قدمى ·· ولكن المياه الصاخبة غلبتنى وانكفيت على وجهى ·· وحاولت الوقوف ثانية ·· ورأيت الرجال الواقفين على الشاطىء وقد تقدموا الى الخوض فى مياه البحر وكل منهم يمسك بيد الآخر ·· انهم الآن يتقدمون لانقاذنا والأخذ بايدينا ·· ولكنى انكفيت مرة ومرة ·· وانهضنى « الزفير » من عثرتى واوقفنى ثانية ·· ولم أعد أرى شيئا ·· ولكنى إحسست بيد قوية تمسك بيدى ·· !

***



وتقدم الرجال لانقاذنا ..

الفصل الحادى والعشرون

العودة الى ((مون فليت)) ..

غبت عن وعيى ساعات طويلة ..

وعندما افقت .. وجدت نفسى راقدا على سرير فى حجرة بها مدفأة موقدة .. وفتحت عينى بصعوبة .. ورأيت رجلين جالسين الى مائدة قريبة من سريرى .. وكانا يتحدثان بصوت منخفض .. وقال احد الرجلين :

ـ يبدو انه سيستيقظ .. ربما سيعيش ليحكى لنا من هو .. وماذا حدث .. لابد أن نقدم اليه بعض الشراب الساخن لأن الليلة باردة .. والمكان هنا فى

هذه الحانة بارد أيضا ·· تصور ياصديقى انى لـــم أدخل الى حانة « هواى نوت » هذه منذ أكثر من عشر سنوات ·· منذ أن غادرها « الزفير » ·· !

وعندما سمعت اسم « الزفير » قمت جالسا فوق السرير وأنا أشعر بأن الألم يكاد يحطم جميع أعضاء جسمى ·· والتفت حولى فى جميع أنحاء الحجرة بحثا عن « الزفير » ·· ولكنى لم أجد فى الحجـــرة أحدا سوى هذين الرجلين ·· ولذلك فقد صـــحت ملتاعـا والخوف يملأ قلبى :

ـ الزفير !! ·· أين الزفير ؟! ·· أين هو ·· ؟!

وتقدم الى أحد الرجلين وهو يحاول أن يهدئنى ·· والتفت الى زميله الآخر وقال :

ـ انه يخطرف ·· انه يهذى !

فصحت بالرجلين مرة اخرى :

ـ انا لا أخطرف ولا أهذى ٠٠ انى أسـألكما عن « الزفير بلوك » ٠٠ أين هو ٠٠ ؟ !

وعندما سمع الرجلان هذا الاسم ، نظر كل منهما الى الآخر نظرات حائرة ٠٠ واقترب منى أحد الرجلين فتذكرت على الفور ملامحه ٠٠ انه « راتسى » ٠٠ !

وقال « راتسي » مندهشا :

ـ من أنت ٠٠ من انت الذى تعرف الزفير بلوك ٠٠ ؟!

وقلت له وانا أكثر منه دهشة :

ـ الا تعرفنى يا « راتسى » ٠٠ لقد افترقنا منـذ زمن طويـــل ٠٠ ولكنـــى تذكرتك الآن ٠٠ قل لى اين « الزفير » ٠٠

احتضننى « راتسي » وأمســك بيدى بين راحتيه واخذ يسالنى فى لهفة ٠٠ أين كنت ٠٠ ومن اين جئت ٠٠ وما قصـة هذه السفينة ٠٠ ولكنى قلت له بالحاح :

ـ سأحكي لك كل شيء فيما بعد .. ولكن اخبرني الآن أين « الزفير » ..

نظر الى « راتسى » وقد بدت على ملامح وجهه علامات الحيرة والدهشة وقال بصوت هادىء :

ـ الزفير ؟ ! .. لا أدرى أين الزفير .. هل كان معك على ظهر السفينة ؟ !

فقلت وقلبي يكاد ان ينفجر في صدرى :

ـ كان معى ؟ ! .. انه هو الذى أنقذ حياتى .. انه هو الذى اوقفنى على قدمى بعد ان صفعتنا آخر موجه .. انه هو الذى كان يأخذ بيدى حتى آخر لحظة .. !!

وارتسم حزن جارف على وجه « راتسى » وهو يقول بصوت كسير :

ـ اذن فقد كان الزفير معك حتى آخر لحظة ..

يااللمسكين ‥ ان أحدا لم يخرج من تلك السفينة حيا سواك ‥ أنت الوحيد الذى خرجت حيا ‥ !

***

وبعد يومين كاملين ، قذفت الأمواج بجثة « الزفير » الى أرض الشاطىء ‥ وحمله الرجال الى حانة « هواى نوت » وأرقدوه على المائدة الرئيسية ‥ نفس المائدة التى رقد عليها من قبل ابنه القتيل «دافيد» .

وقف الرجال حولى نحو دقيقة أو دقيقتين ‥ ثم أخذوا ينصرفون واحدا وراء الآخر ‥ وظل « راتسى » واقفا أمامى صامتا ‥ وأخيرا بدا يتكلم بصوت حزين :

ـ سأتركك وحدك مع صديقك ‥ وساعود اليك مرة ثانية قبل أن يحل الظلام ‥

ثم انصرف « راتسى » وتركنى وحدى مع صديقى الذى خطفه الموت فى آخر لحظة بعد أن انقذ حياتى ‥

وامتلأ قلبى بحزن عميق ·· ودارت فى ذهنى مئات الذكريات ··

كان التراب يغطى كل أرجاء الحانة من الداخل ·· وكل شىء ظل كما كان فى ليلة المزاد الكئيبة منذ أكثر من عشر سنوات ·· بل ورأيت الشمع المتجمد الذى سال من الشمعة بعد أن سقط الدبوس ·· مازالت هذه الآثار كما هى ·· !

ثم جلست على مقعد جوار نار المدفأة ·· ووضعت رأسى بين يدى وغرقت فى الأحزان ··

ولا أدرى كم مر من الوقت حين شعرت بحركة خطوات تقترب ·· وظننت أن « راتسى » قد عاد كما وعد ·· ولكنى شعرت بيد رقيقة وضعت بحنان فوق ذراعى ، والتفت خلفى ·· فاذا بى أجد أمامى شابة طويلة فى غاية الجمال والرقة ·· كانت « جريس » بنفسها ·· !

قالت « جريس » بصوت رقيق ناعم :

ـ جون ·· هل نسيتى ياجون ·· هل رأيت نور الشمعة التى كنت أوقدها كل ليلة انتظارا لعودتك ·· هل نسيت أن لك اصدقاء هنا ·· ؟ !

قلت وانا أمسك بيدها بين راحتى :

ـ لم أنس شيئا ياعزيزتى ·· كل الأشياء اذكرها ولم تغب عن ذهنى طوال السنوات الماضية ·· وانت عندى اغلى الناس جميعا ·· ولكنى لا استطيع الكلام عن الحب ·· فانت الآن امرأة محترمة وعظيمة ·· وما انا سوى انسان فقير لا يملك شيئا ·· واحمل عـــلامة السجناء فوق جبهتى ·· !

وقالت « جريس » برقة وحنان اكثر :

ـ لا تتحدث عما تملك او مالا تملك ·· ان المال لايصنع الرجال ·· لقد عدت الآن ياجون وانت اكثر ثراء بتجاربك فى الحياة ·· !

واستمر حديثنا جوار نار المدفأة لفترة طويلة ٠٠
وتعجبت كثيرا من أمر تلك الشابة الجميلة العظيمة ٠٠
كيف تحتفظ لى بمكان فى قلبها ٠٠ وما انا سوى انسان
فقير لايملك شيئا ٠٠ ؟ !

***

الفصل الثانى والعشرون

النهايــة ..

لم يعد باقيا سوى بعض التفاصيل الصــغيرة .. ولكنى اريد أن اخبركم أولا بشأن الجوهرة الثمينة التى ضاعت منى فى هولاندا ..

وصل الى انجلترا « الهر روستن » وهو احــــد رجال القانون الهولانديين الذى يعملون فى « لاهاى » وأرسل الى خطابا قانونيا طويلا يتضمن معلومات فى غاية الغرابة ..

يقول الخطاب ان تاجرا شهيرا يدعى « الدوبراند » قد مات أخيرا وترك كل ثروته لمن يدعى « جون ترنشارد

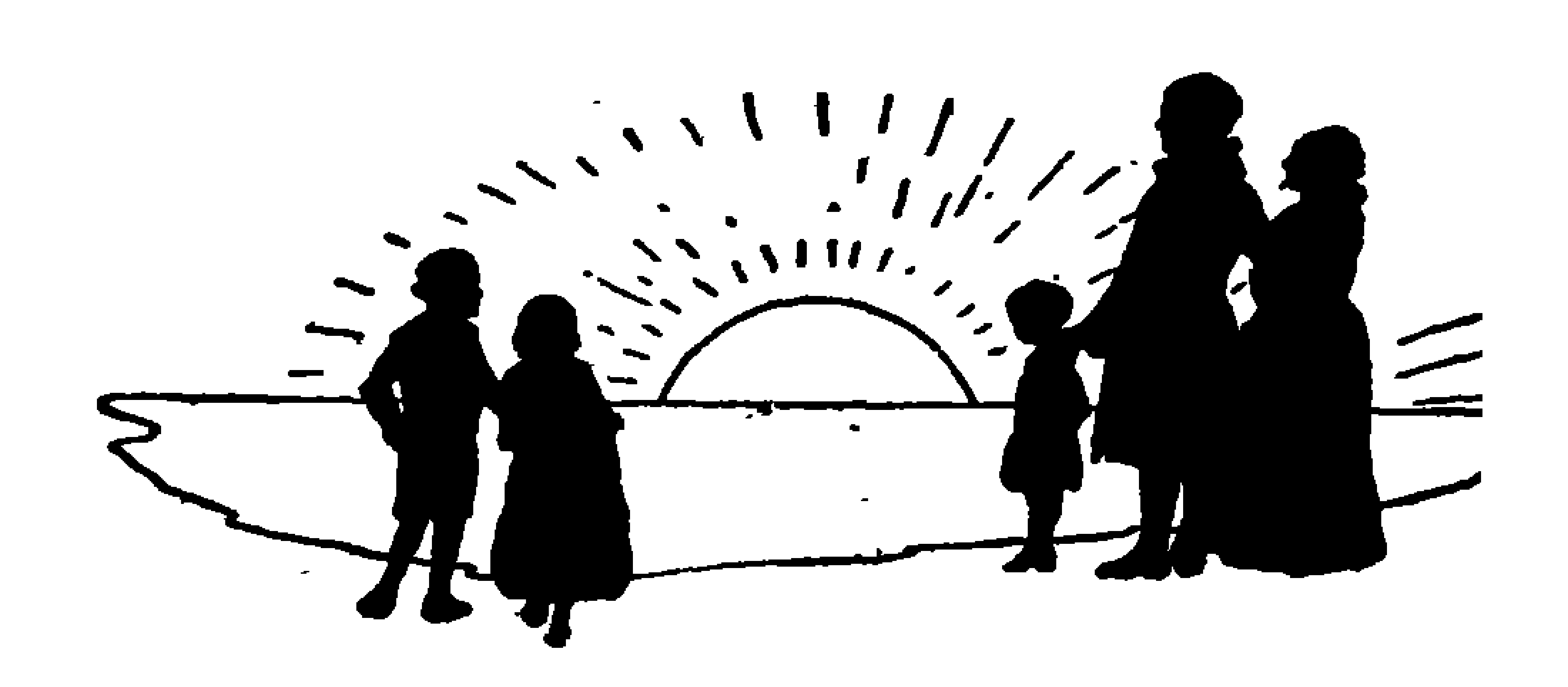
من قرية « مون فليت » بساحل « دورست » بانجلترا ••
ونظرا لأن هذا التاجر قد مات دون ان يكون له ابـــن
يرثه فانه يترك كل هذه الأموال « لجون ترنشارد » لأنه
قد حصل منه بطريق الغش والخداع على جوهرة ثمينة
ولم يعطه ثمنا لها ، بل وادخله الى السجن •• وبمجرد
أن حصل « الدوبراند » على هذه الجوهرة دون وجـــه
حق •• ساءت احواله وحلت به التعاسة •• وشعر أن
هذه التعاسة هى عقاب له على غشه وخداعه وخيانته
•• ولهذه الاسباب كلها فانه يترك أمواله بعد موتـــه
« لجون ترنشارد » وذلك تكفيرا عن الذنب الذى جناه
ضده ••

هكذا عاد الى ثمن الجوهرة الثمينـــة •• ولكننا
(انا وزوجتى جريس) قررنا أن نتبرع بكل هذه الأموال
الى الفقراء ••

***

وفى كثير من الاحيان كنا نخرج ـ أنا وجريس ـ للتنزه فى غابة « مانور » •• ونصحب معنا أولادنا •• جون الصغير •• وجريس الصغيرة •• والزفير الصغير ••

وهناك نتمتع دائما بمنظر الشمس الغاربة •• وهى تلقى انوارها الذهبية فوق قمم التلال •• بينما تتقدم تباشير الليل بخطوات صامتة •• ولاصوت يسمع هناك سوى صوت البحر وهدير أمواجه •• !



الفهـــرس

الصفحة

الصفحة

الصفحة

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع ٩٩/١١٣٦٧

I.S.B.N-----------------------------

977 - 01- 6394 -5



هذا هو العام السابع من عمر «مكتبة الأسرة» .. ومنذ سنوات طوال لم يلتف الناس حول مشروع ثقافى كبير كما التفوا حول هذا المشروع الثقافى الضخم حتى أصبح مشروعهم الخاص، وطالبوا باستمراره طوال العام. واستجبنا لهذا المطلب الجماهيرى العزيز إيمانًا منا بأهمية الكتاب؛ وبالكلمة الجادة العميقة التى يحتويها؛ فى إعادة صياغة وتشكيل وجدان الأمة واستعادة دورها الحضارى العظيم عبر السنين.

لقد استطاعت «مكتبة الأسرة».. أن تعيـ الكتاب مصدرًا هامًا وخالدًا للثقافة فى زمـ التكنولوجية المعاصرة.. وها نحن نحتفل ببدء ا من عمر هذه المكتبة التى أصدرت (١٧٠٠) عنو من «٣٠ مليون نسخة» تحتضنها الأسرة المصرية وعقولها زادًا وتراثًا لا يبلى من أجل حياة أ الأمة.. ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة ف

سوزان مبار

مكتبة الأسرة

مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٠



١٠٠ قرش